

Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la  
Recherche Scientifique  
Université Tahri Mohammed Béchar  
Faculté des Sciences Humaines et Sociales



وزارة التعليم العالي و البحث العلمي  
جامعة طاهري محمد بشار

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الاجتماعية



مطبوع بيداغوجي للسنة الثانية ليسانس علم الاجتماع

اتجاهات ونظريات معاصرة في علم الاجتماع

الدكتور: أحمد تريكي.

2022-2021

## المحتوى



08

المقدمة.....

11..... الفصل الأول: الوظيفة الجديدة.....

13..... أولاً- جيفري آلكسندر.....

17..... ثانياً- نيكلاس لومان.....

25..... الفصل الثاني: نظرية الصراع بعد ماركس.....

27..... 1 - رالف داهرن دورف (القوة والصراع والتغير الاجتماعي).....

34..... 2 - لويس كوزر.....

36..... 3 - راندل كولينز.....

39..... الفصل الثالث: البنيوية التكوينية والبنيوية الجنينية.....

40..... أولاً: نوربرت إلياس.....

44..... ثانياً: بيير بورديو.....

46..... 1 - الهابيتوس.....



2- رأس المال..... 47

3 - المجال..... 48

ثالثاً: أنطوني غيدنز، نظرية الانعكاسية الاجتماعية..... 49

الفصل الرابع: بيتر برغر وتوماس لوكمان البناء الاجتماعي

والواقع..... 53

الفصل الخامس: التفاعلية الرمزية..... 60

1 - ارفنغ قوفمان..... 61

2 - آرلي رسل هوشيلد..... 64

3 - باتريشيا هل كولينز..... 66

الفصل السادس: علم اجتماع العلوم..... 69

1 - نظرة تاريخية موجزة على علم اجتماع العلوم..... 70

أ - ماكس شيلر..... 71

ب - فلوريان زنانيكي..... 72



ج- روبرت ميرتون.....73

2 - تنوع المقاربات السوسيولوجية للعلوم (التجديد).....74

أ - توماس كون.....75

ب - تنوع مواضع التحليل السوسيولوجي.....76

3 - تفسير محتوى طبيعة المعرفة العلمية سوسيولوجياً.....76

4 - العلم بصفته بناء.....78

5 - منظورات سوسيولوجية حول أسس الجماعة العلمية....79

الفصل السابع: علم اجتماع الفعل وعلم اجتماع الجسد.....83

أولاً: علم اجتماع الفعل.....84

1 - يورغن هابرماس، تكامل نظريتي الفعل والنظم.....84

ثانياً: علم اجتماع الجسد.....86

1 - الأسس الاجتماعية للصحة.....87

2 - الطب والمجتمع.....89



3 - منظورات في علم الاجتماع حول الصحة والمرض.....90

الفصل الثامن: النظرية النسوية.....92

1 - النظرية النسوية في الفكر السوسيولوجي الكلاسيكي...93

2 - النظرية النسوية الليبرالية.....95

3 - الاتجاه النسوي الماركسي.....96

4 - الاتجاه النسوي الراديكالي.....97

الفصل التاسع: نظرية الاختيار العقلاني.....100

1 - خصائص نظرية الاختيار العقلاني.....101

2 - ماركسية الاختيار العقلاني.....102

أ - آلن كارلنغ.....103

ب - جون ألستر.....103

3 - نطاق التفسير في نظرية الاختيار العقلاني.....104

4 - الانتقادات الموجهة لهذه النظرية.....105



## الفصل العاشر: مستقبل النظرية السوسيولوجية، الحادثة وما بعد

الحدث.....	107
1 - الخصائص الرئيسية للحادثة.....	108
2 - الحادثة وعلم الاجتماع.....	110
3 - ما بعد الحادثة وعلم الاجتماع.....	111
4 - نظرية ما بعد الحادثة ونقد النظريات الشمولية.....	115
5 - نقد نظرية ما بعد الحادثة.....	116
6 - ما بعد الحادثة ومستقبل علم الاجتماع.....	118
الخاتمة.....	119
قائمة المراجع.....	121



## المقدمة



## المقدمة:

تنوعت المقاربات النظرية في علم الاجتماع من وظيفية إلى صراعية إلى تفاعلية... كما أنه لا وجود لنظرية شاملة تستطيع أن تفسر جميع مناحي الحياة الاجتماعية. هذا لأن هناك نظريات تفسر البناء وأخرى تفسر الفعل فالتى تفسر الظواهر المتعلقة بالبناء ليس بمقدورها تفسير الفعل البشري.

لذلك لا بد من الانتقال من نظرية إلى أخرى عندما يقتضي البحث ذلك. ففي هذا الكتاب سوف نجد أهم النظريات المعاصرة في علم الاجتماع، تلك النظريات التي تقدم للمهتم بعلم الاجتماع فهما تراتبيا متدرجا لوقائع الحياة الاجتماعية كما يعيشها الفرد. فالنظرية الوظيفية تعطي صورة مفصلة عن تفاصيل التفاعل الاجتماعي ودوره في البناء الاجتماعي ثم دور البناء الاجتماعي في تنظيم الحياة اليومية للمجتمع في حلقات مترابطة متداخلة بإحكام دقيق وهو جزء من إحكام نظام عام شامل للبشرية كلها. أما نظرية الصراع فتوضح أن استيعاب الحياة الاجتماعية وتفاعلاتها تعترضه الكثير من المشاكل بسبب اختلاف وتباين مكانة ودور ووظيفة البشر واختلاف تفكيرهم وفهمهم وتصورهم للأفعال، فهذا يخلق تبايناً يؤدي إلى الصراع. أما التفاعلية الرمزية فتؤكد على أنسنة الكائن الحي لأن التفاعل يمتاز به الإنسان عن الكائنات الأخرى وكرمه الله بالرموز ليسهل عليه هذا التفاعل، فبدون التفاعل وبدون الرموز لا تنتظم الحياة البشرية كما ينبغي لها أن تكون، إذ تتحول بدونها إلى عبث حيواني لاسبيل له لا مع الطبيعة ولا مع ذاته ولا مع المجتمع.

إن الاطلاع على مستجدات ومستحدثات النظريات باختلاف اتجاهاتها يبين للباحث ويعينه على فهم واقع الحياة الاجتماعية الحاضر والمستقبل، وكذلك تتبع التصدعات

المعرفية في النظريات السوسيولوجية عبر مراحل تطورها، مما يعينه على فهم عملية الانقسام التي تعيشها النظرية.

وعلى الرغم من أن علماء الاجتماع المعاصرين أثاروا مسائل إضافية - وربما مختلفة عن تلك التي أثارها الرواد الأوائل مثل ماركس وفير و دوركايم، فإن استمرار أهمية أعمال هؤلاء الثلاثة تعكس أمرين: أولهما أن المسائل العامة التي أثاروها تتشابه مع بعض المسائل التي يثيرها علماء الاجتماع اليوم، وثانيهما أن أطر التحليل والتفسير الاجتماعيين أو المنظورات السوسيولوجية التي ابتدعها هؤلاء المؤسسون تم تطويرها وتعديلها، ولكن لم يتم احلالها احلالاً كلياً.

ويشتمل هذا الكتاب على عشرة فصول، يدور الفصل الأول حول الوظيفية الجديدة حيث نعرض فيه على جيفري ألكسندر ونيكولاس لوهمان. أما الفصل الثاني فنتطرق فيه لنظرية الصراع بعد ماركس ونذكر فيه أهم مفكري هذا الاتجاه مثل رالف داهرن دورف، لويس كوزر و راندل كولينز. بينما يدور الفصل الثالث حول البنيوية التكوينية والبنيوية الجنينية التي يمثلها نوربرت إلياس وبيير بورديو وأنتوني غيدنز. أما موضوع الفصل الرابع فموضوعه هو البناء الاجتماعي والواقع عند بيتر برغر وتوماس لوكمان. في الفصل الخامس نجد عرضاً للنظرية التفاعلية الرمزية، وذلك عبر مفكريها المشهورين من أمثال إرفنغ قوفمان، آرلي رسل هوشيلد و باتريشيا هل كولينز. في حين يدور الفصل السادس حول علم اجتماع العلوم من حيث النشأة مع ماكس شيلر مروراً بفلوريان زنانبيكي وصولاً إلى روبرت ميرتون مبيينين تنوع المقاربات السوسيولوجية للعلوم مع توماس كون مع شرح محتوى طبيعة المعرفة العلمية سوسيولوجياً على اعتبار العلم بناءً، ومن ثم تقديم منظورات حول أسس الجماعة العلمية.

ونقف في الفصل السابع عند كل من علم اجتماع الفعل وعلم اجتماع الجسد. حيث نجد في علم اجتماع الفعل يورغن هابرماس يتناول بالشرح قضية تكامل نظريتي الفعل والنظم. أما في علم اجتماع الجسد فننتعرف على الأسس الاجتماعية للصحة ثم الطب والمجتمع فالمنظورات الأساسية في علم الاجتماع حول الصحة والمرض. ثم ننتقل في الفصل الثامن إلى موضوع النظرية النسوية في الفكر السوسيولوجي منذ مرحلته الكلاسيكية، مع الإشارة إلى النظرية النسوية الليبرالية ثم الاتجاه النسوي الماركسي. أما الفصل التاسع فننترق فيه لنظرية الاختيار العقلاني من حيث الخصائص، ثم المنظور الماركسي في هذه النظرية عند آلن كارلنغ وجون آستر مع شرح نطاق التفسير في هذه النظرية والانتقادات الموجهة لها.

ونصل في الفصل العاشر والأخير إلى تقديم نظرة حول مستقبل النظرية السوسيولوجية في الحداثة وما بعد الحداثة، مع شرح الخصائص الرئيسية للحداثة عموماً وفي علم الاجتماع خصوصاً، وكذلك نعمل بخصوص ما بعد الحداثة وتقديم الرؤية التي تنتقد فيها النظريات الشمولية. ونعرض في الأخير نظرة نقدية لما بعد الحداثة ومصير علم الاجتماع مع ما بعد الحداثة.

**والله ولي التوفيق.**

## الفصل الأول: الوظيفة الجديدة

أولاً - جيفري آلكسندر

ثانياً - نيكلاس لومان

## الفصل الأول:

### الوظيفية الجديدة:

#### تمهيد:

جاءت الوظيفية الجديدة مركزة على البعد الأمبيرقي في البناء النظري واعتمدت على ما جاء في التفاعلية الرمزية والظاهرية كما تناولت الحياة اليومية للجماعات، أما من الناحية الأيدولوجية فقد ابتعدت عن نظرة التفاؤل الليبرالية بتوجه نقدي لما يمكن أن تتضمنه عملية التغير والتباين من مشكلات، كما اهتمت بالنظم السياسية وربط التطور الديمقراطي بالعقلانية والقصدية وعمليات المأسسة، وأدخل جانب الصدفة من قبل بعض الجدد، ويرى هؤلاء أن جماعات المصالح المتباينة قد تتوافق في النظام الديمقراطي وتلتزم بالشرعية أو قد تلجأ إلى حالات الصراع .

وعليه تعتبر الوظيفية الجديدة تطورا نظريا حديثا ظهر منتصف الثمانينات من القرن الماضي، في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا. وخصصت الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع في عام 1984 جلستين من لقاءها السنوي لمؤتمر حول الوظيفية الجديدة، حيث كانت معظم الأوراق التي قدمت بمثابة إعادة ترمين وإعادة اعتبار للتطبيقات الامبيرقية للنظرية البارسونزية. ولقد تم تحرير أوراق المؤتمر بعد ذلك من قبل جيفري ألكسندر قائد الوظيفية الجديدة وحليفها في الولايات المتحدة الأمريكية.

## أولاً- جيفري ألكسندر: (Jeffrey C. Alexander)

وضع جيفري ألكسندر هذا المصطلح (الوظيفية الجديدة) ليشير إلى أنّ جهوداً تبذل من أجل إعادة بناء النظرية الوظيفية على المستويين النظري والأمبيريقى وتتصف معظم اتجاهات التجديد بأنها محاولات توليف وتوفيق بين النظريات الشاملة والصغرى ومعالجة العلاقة بين الفعل والبناء والصراع والثبات.

لقد ارتكز ألكسندر على محاولة توليفية جمع بها أفكار دور كايم وفبير وباريتو لكن محاولاته أثارت تساؤلات كثيرة، وعلى هذا الأساس يرى ألكسندر أنّ الأعمال العلمية في علم الاجتماع تمثل متصلاً تحده من جهة النظريات الشاملة التأملية والميتافيزيقية ويقابلها من الجهة الأخرى الأعمال الميدانية والأمبيريقية، ويتطلب تطوير نظرية اجتماعية علمية تجمع بين الجانبين النظري والأمبيريقى، إلى جانب الجمع بين المستويات المختلفة في البناء الاجتماعي مما يتطلب معالجة المستوى الفردي والجماعي والعلاقة بين البناءات والنظم لتحقيق نظرة متكاملة، أما من جانب التجديد فقد اعتمد التوليف بين اتجاهات الصراع والاتجاهات الوظيفية بافتراض علاقات التكامل والصراع والاستمرار ويتناول البعد الذاتى والموضوعى كأوجه لحقيقة الواقع الاجتماعى، وقد شملت التجديدات اتجاهات متباينة كالثقافة، التغير الاجتماعى، التنظيمات والمهن، اللامساواة السياسية، الاتصال الاجتماعى، الاقتصاد الاجتماعى، دراسات المرأة، الحركات الاجتماعية.

كانت الدراسات السابقة تشير إلى أنّ النسق الثقافى والنسق الاجتماعى الكلى في نفس المؤسسة من خلال ما يستدمجه الفرد في بناءه الثقافى، بينما يرى ألكسندر أنّ هذا يمثل جانباً واحداً من الحقيقة، واقترح وجود قاعدة ثقافية مشتركة لاحتتمال ارتباط

التباين في البناء الاجتماعي بتباين في الأنماط الثقافية داخل النسق الاجتماعي. فالجماعات المتناقضة المصالح والوظائف تنتج ثقافات فرعية متعارضة رغم اعتمادها على النسق الثقافي المعياري العام، وهذا التباين يمكن أن يحمل توجهاً آخر يتضمن اختلافات أساسية ينتج عنها صراع اجتماعي ثقافي، فليس من الضروري أن تتبنى جماعات المصالح المتباينة قاعدة ثقافية مشتركة فهناك عوامل كثيرة في المجتمعات الحديثة تعزز التباين واللامساواة، هذا الطرح جاء رداً على انتقادات بأنّ الوظيفية أهملت تناول التناقض والتغير والصراع.

ففي كتابه (الوظيفية الجديدة) يؤكد ألكسندر أن المعركة ضد البارسونية، قد حسمت في عام 1980، فنظريات الصراع، والتبادل، والتفاعل والاثنوميتودولوجيا، والنظرية الماركسية، أبرزت قضايا هامة بينت من خلالها ضعف نظرية بارسونز في نواحي متعددة، وتمثل وجهة نظر ألكسندر أننا نعيش اليوم حالة ما بعد بارسونية في التنظير السوسيولوجي، وهي حركة توليفية، تحاول بشكل أساسي، الوصل بين النظريات بعيدة المدى، والنظريات قصيرة المدى.<sup>(1)</sup>

أما في كتابه الموسوم (الوظيفية الجديدة وما بعدها) يعترف ألكسندر بأن مشروع الوظيفية الجديدة قد انتهى. ويوضح بأن الانتقال من الوظيفية التقليدية التي أعيد بناؤها قد اكتمل لأن شرعية بعض اهتمامات بارسونز المركزية قد رسخت وتمأسست. ومن وجهة نظر ألكسندر، فإن الوظيفية الجديدة نجحت في تحقيق الاعتراف ببارسونز كواحد من أعلام علم الاجتماع الكلاسيكيين. وهذا يعني أن الموقف النظري لدى بارسونز، ورغم بروزه وتفوقه تاريخياً، فلن يسيطر على الأعمال النظرية المعاصرة.

<sup>1</sup> - محمد عبد الكريم الحوراني، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع (التوازن التفاضلي صيغة توليفية بين الوظيفة والصراع)، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع عمان الأردن 2007، ص.123.

وبضيف ألكسندر بأن أفكار بارسونز " لا تقل أهمية عن بعض الانجازات الحاسمة لدى منظرين كلاسيكيين آخرين"<sup>(1)</sup>.

لقد كانت طريقة جيفري ألكسندر في التعامل مع الانتقادات الموجهة لبارسونز هي التسليم بها، وقد أفضى هذا إلى بعض الأعمال القيّمة، فقد عمل ألكسندر على تخفيف حدة النظرية الوظيفية عن طريق الغاء حتمية التفسير السببي الذي تحتمه فكرة الترتب السبرنطقي ولذلك فإن التطور الاجتماعي قابلاً لكل الاحتمالات، ويستخدم ألكسندر فكرة التوازن بصفتها نقطة مرجعية، حيث أن التوازن هو دائماً توازن متحرك، كما تقر الوظيفية الجديدة بفكرة التمايز أو التفاضل التي تمثل صيغة من صيغ التغيير الاجتماعي.<sup>(2)</sup>

وتتضمن الوظيفية الجديدة مسارات وميول مختلفة للعمل، أهمها ما يلي:

1 -خلق شكل من الوظيفية متعدد الأبعاد، ويتضمن مستويات التحليل بعيدة المدى وقصيرة المدى.

2 -دفع الوظيفية إلى ترك ورفض تفاؤل بارسونز بالحدثة.

3 -العمل من أجل حركة ديمقراطية واضحة في التحليل الوظيفي.

4 -استدماج منظور الصراع.

<sup>1</sup> - ورث والس وألسون وولف، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع (تعدد أفاق النظرية الكلاسيكية)، ترجمة محمد عبد الكريم الحوراني، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان الأردن، 2010، ص.114.

<sup>2</sup> - إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة، محمد حسين غلوم، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، أبريل 1999، ص.92.

## 5 - استدماج الابداعية التفاعلية والتأكيد عليها. (1)

ففي المجلد الأول من مؤلفه الضخم " المنطق النظري في علم الاجتماع" يذهب ألكسندر إلى أن بارسونز كان يميل إلى دمج ما هو عيني وما هو نظري، ويتجاهل مسألة القسر الذي يمارسه المجتمع لفرض المعايير والقيم فضلا عن النواحي المادية للفعل. وميزة ألكسندر الكبرى هي أنه على الأقل واع لكل هذه الأبعاد، ولذا فهو يقدم منطلقا لنظرية سليمة. ويجعل هذا التناول دخول مختلف ضروب الفكر إلى نظرية بارسونز أمراً ممكناً. (2)

ومن ثم فإن ألكسندر يتمسك بنظرته إلى الوظيفية باعتبارها "تياراً حيويًا في الأعمال المعاصرة... وأنها تمثل خيطاً قوياً في نسيج الحركة النظرية الجديدة". بالإضافة إلى ذلك، يتوقع أن تستمر الوظيفية الجديدة في إنتاج دراسات سوسيولوجية خلاقة وهامة، ولكنه يؤكد بأن "النجاح الأساسي للوظيفية الجديدة يقع ما وراء نطاقها كذلك". (3)

إن اتجاه الحركة النظرية بالنسبة لألكسندر يتجاوز إعادة بناء النظريات الموجودة أصلاً إلى صياغة نظريات جديدة. ويرى أن الأمر الذي حرض هذه الحركات يتمثل في انبثاق نظريات متولدة سياسياً مثل: النسوية، والتعددية الثقافية، والمجتمع المدني، وما بعد الاستعمارية. وهكذا فإن انفصال ألكسندر عن بارسونز من حيث تركيزه على التوازن، في المستوى بعيد المدى كما ذكرنا سابقاً يبدو واضحاً من خلال قوله: " إن الطبقات الشقاقية المتولدة عن الحياة الاقتصادية، والأوليغارشية المتولدة عن القوة السياسية والتنظيمية وهيراركيات النوع الاجتماعية والسن في الأسرة، والإيمان بالشياطين

<sup>1</sup> - محمد عبد الكريم الحوراني، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع (التوازن التفاضلي صيغة بين الوظيفية والصراع)، مرجع سابق، ص.124.

<sup>2</sup> - إيان كريب، مرجع سابق، ص.93.

<sup>3</sup> - رثوالس، مرجع سابق، ص.115.

الذي يستمد شرعيته من المؤسسات الدينية بصورة متكررة، وأشكال الهيمنة الإثنية، والإقليمية، والعرفية، المتولدة عن التشكيل البنائي الأساسي للدويلات الأهلية الوطنية، إن مثل هذه الترسبات تجزىء المجتمع المدني وتمزقه حتى عندما يعد وجوده الأساسي باستعادة الكل الاجتماعي وتفعيل مشاركته"<sup>(1)</sup>.

وينظر ألكسندر إلى أعماله باعتبارها تمثل مساهمة في الحركة النظرية الجديدة، ويعترف بأنه قد تحول عن اتباع بارسونز بتجاهله النظام في حياة الناس، وكذلك بالتنظير ضمن النظريات السوسيولوجية قصيرة المدى على نحو أكثر وضوحاً ومباشرة. ويوضح هذا الأمر أعماله الجديدة التي قدمها حول الفعل. فبينما نظر بارسونز إلى الفاعلين باستمرار على أنهم يمثلون مفاهيم تحليلية، عرف ألكسندر الفعل باعتباره حركة لأشخاص حقيقيين، وفاعلون، ويتنافسون، وهم يشقون طريقهم عبر الزمان والمكان. بالإضافة إلى ذلك، عندما يؤكد ألكسندر بأن كل فعل يتضمن بعداً من أبعاد الإرادة الحرة أو القوة فإنه بهذا الاجراء، يمد نطاق الوظيفية لتشتمل بعض اهتمامات الرمزية.<sup>(2)</sup>

## ثانياً - نيكلاس لومان:

اتجه المنظرون الألمان إلى قراءة بارسونز من خلال نيكلاس لومان الذي تتلمذ على يد بارسونز في جامعة هارفرد. وينظر لومان إلى نظرية بارسونز باعتبارها حدثاً تاريخياً هاماً، وبالرغم من ذلك فإنه يرى أنها، تفتقد إلى مفاهيم مرجعية الذات وتخلو

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص.115.

<sup>2</sup> - نفس المرجع، ص.116.

من التعقيد. وعليه فعمل لومان يعتبر محاولة لصياغة نظرية عالمية أو كبرى للأنساق الاجتماعية تتدمج فيها هذه المفاهيم.<sup>(1)</sup>

ويرى لومان أن النسق الاجتماعي يوجد " حيثما كان هناك أفعال ذات معنى لعدة أشخاص، وكانت هذه الأفعال مترابطة، ومن ثم ... تكون منفصلة عن البيئة." وهكذا، فإن النسق الاجتماعي، ينبثق حيثما وجد تفاعل بين الأفراد. وحسبما يرى لومان هناك ثلاثة أنماط من الأنساق الاجتماعية، هي: أنساق التفاعل [تفاعلات الوجه للوجه للبشر]، وأنساق التنظيم [حيث يتم ربط العضوية بظروف محددة]، والأنساق الاجتماعية [كلما يطوق النسق الاجتماعي، والمجتمعات الكلية].<sup>(2)</sup>

وحسبما يرى لومان، تمثل مراجعة الذات ظرفاً لعمل النسق بطريقة فعالة. ويعني أن النسق قادر على ملاحظة ذاته، وأن ينعكس على ذاته وعلى ما يفعل، ويستطيع أن يتخذ قرارات نتيجة لهذا الانعكاس. وتمتلك الأنساق المراجعة للذات القدرة على رسم الخطوط الكبرى لهويات ذاتها. إنها تستطيع وصف ذاتها من خلال وضع حدود حسبما تكون وما لا تكون. بمعنى آخر، إن النسق يمتلك استقلالاً بنائياً.

تحصل مراجعة الذات من وجهة نظر لومان في جميع الأنساق الفرعية، مثل النسق السياسي، والعلم، والاقتصاد، والأسرة والتربية والقانون. ويقدم لنا مثلاً على مراجعة الذات من قبل النسق عندما يقول: "بأن النسق العلمي ينعكس على ذاته بالانتظير الجوهري، ومن خلال قراراته بمتابعة أو عدم متابعة تقاليده المعطاة تاريخياً، إن الأنساق المراجعة للذات ليست فقط أنساقاً منظمة أو أنساقاً متسقة...إنها توجد كشبكة

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 119.

<sup>2</sup> - نفس المرجع، ص. 120.

مغلقة لإنتاج العناصر التي تعيد إنتاج نفسها وذلك من خلال استمرارها في إنتاج العناصر المطلوبة لاستمرارية إنتاج العناصر." (1)

ومع ذلك فإن موقف لومان هو أن الموضوع الانساني، أو جماعة اجتماعية محددة لم تعد تشكل النقطة المركزية في الفكر الاجتماعي. وحسب ما يرى لومان، فإن الأنساق الاجتماعية معقدة إلى حد أنه لا يمكن أن تعامل بهذه الطريقة، فلا يمكن أن تعامل على أساس أنها تتكون من وحدات اتصال وتواصل. وبذلك فإن الأفراد يمثلون مجرد جزء من بيئة النسق الاجتماعي. فبالنسبة لـ لومان فلا يبدو أن المعنى الذاتي وارد في حساباته النظرية ويتضح هذا في مقولته: " ليست ثمة طريقة معقولة لجعل نظرية الأنساق ترتكز على المفهوم الفيبري المتمثل في الفعل ذو المعنى". (2)

إن المهمة الأساسية التي تؤديها الأنساق الاجتماعية في نظرية لومان هي اختزال التعقيد. إن لومان مقتنع بأن نظرية الفعل عند بارسونز " تقدم مصادر ضئيلة فقط لتدبير التعقيد"، وأن "نظرية حول المجتمع ينبغي أن تشغل ذاتها بأفكار من قبيل اختزال التعقيد الكبير والطبيعة الطارئة والعارضة للعالم." فمن وجهة نظر لومان فإنه كلما كان التعقيد أكبر فإن ذلك يعني وجود خيارات وامكانيات بصورة أكبر. وهذا يعني أن الاختيار من بين بدائل أكثر صعوبة، أي أنه يستغرق أكثر من "لا" للوصول إلى "نعم". على سبيل المثال، تصور صعوبة القرار الناتج عن تلك المخترعات التكنولوجية التي أنتجت تنوعا هائلا في برامج المعلومات software للحاسوب، فكيف يمكن للمرء أن

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص.120.

<sup>2</sup> - نفس المرجع، ص.121.

يختار برنامج معالجة الكلمات word على سبيل المثال، عندما تقدم برامج جديدة ونسخ أكثر تعقيداً بشكل يومي؟<sup>(1)</sup>

وعليه يرى لومان أن المشكلة الجوهرية لمثل هذا العالم المتناقض يمكن أن تحل أو تُحول إلى مشكلات بسيطة عن طريق الدين أو عن طريق مرادفات وظيفية عديدة للدين في المجتمع الحديث، مثل: الفن، الحب، القوة المستقلة، وجمع المال. إن ما تملكه هذه البدائل بوجه عام هو أنها تزود بعض الفاعلين على الأقل بمستويات مشتركة من الفعل المقبول استناداً إلى الإيمان. إنها تسمح لنظم التفاعلات المعقدة أن تشق طريقها في عالم يمكن أن يكون خلافاً لذلك مشوشاً بشكل كامل، ومن الصعب ادراكه وفهمه.

أما بخصوص المستقبل لا يبدو لومان متفائلاً كما كان بارسونز، ويوضح لومان بأن المجتمع الحديث معقد إلى حد كبير بالنسبة للمعايير المشتركة أو حتى تعميم القيمة. وينتقد بارسونز ليس بسبب مقالاته في تقدير الاجماع الاجتماعي الذي يعد ضرورياً من الناحية الوظيفية فقط، ولكن كذلك بسبب مقالاته في تقدير الاجماع الموجود في الواقع الفعلي. إن الذي يجمعنا من وجهة نظر لومان، هو القبول العام المشترك للاحتمالات المخططة (أو البنائية). ومع ذلك، هناك جاذبية قليلة من وجهة نظرنا لفكرة أن العالم يكون متحداً من خلال الموقف الذي يستعصي على التوقع.

ويشير لومان، في عمل متأخر له إلى الجوانب السلبية (المعوقات الوظيفية) للحدثة. ويرى أن المجتمع يواجه تحديات النتائج التامة لخياراته البنائية مثل المشكلات البيئية الناتجة عن عقلانيته. ويشير لومان كذلك إلى نمو الادراك بالمخاطر الكونية

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص121.

المنبعثة من المشكلات البيئية المعاصرة والانزعاج منها، والنضال من أجل الحفاظ على مستوى الرفاه الاجتماعي. وفي الحقيقة، فإن لومان يصف هذا بأنه "منطقة القلق غير المتقنة".

في أحدث كتاب له والموسوم "المخاطرة: نظرية سوسيولوجية"، يعرف لومان المخاطرة بأنها: أذى محتمل يخيف الفرد ويرتكز على قرار اتخذه بنفسه. إنها عملية حسابية تأخذ بالاعتبار الخسارة والفائدة المحتملة بالاستناد إلى الزمن، مثل اتخاذ قرار ما أو متى أو أين أو نعد مواد نووية أو نشعل سيجارة أو ندخن. (1) وبهذا الصدد يميز لومان بين المخاطرة والخطر، حيث يعرف الخطر بأنه الأذى المحتمل الذي يتعرض له الفرد بفعل مؤثرات خارجية، أي دون أن يتخذ الفرد نفسه قراراً بفعل كذا، ومثال ذلك، الإعصار القمعي، والهزة الأرضية، والإعصار المصاحب بالمطر والرعد. ويوضح لومان بأنه في مثل هذه الحالة من الخطر فإن "الخسارة المحتملة مسببة بفعل مؤثر خارجي. أي أنها تعزى إلى البيئة". (2)

ويوضح لومان أن قرار الفرد (المخاطرة) قد يمثل خطراً، مثل تأثير المدخنين على غير المدخنين، وهكذا، فإن الفرق الحاسم بين صناع القرار، والناس الذين يتأثرون بالقرار هو أن ما يكون مخاطرة لأحدهم (صناع القرار) هو خطر على الآخر (المتأثر باتخاذ القرار).

بالعودة إلى تركيزه على وحدات الاتصال والتواصل، يطرح لومان السؤال المتعلق بحقيقة كيف يجب أن يتشكل الإدراك بالمخاطرة عن طريق الاتصال الذي يعمل على

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص122.

<sup>2</sup> - نفس المرجع، ص123.

رفع مستواها. ويشير هنا إلى تحذيرات مضادة للمخاطر عن طريق انتاج الاعلان، ويندرج تحت عنوان "جهود متعددة لأنواع التأثير في السلوك الجنسي لمواجهة مخاطرة الإيدز".<sup>(1)</sup>

بين لومان أنه بينما كان الناس في المجتمع البدائي يخافون من المخاطر بشكل أساسي، فإن المجتمع التكنولوجي يتخذ قرارات تؤثر في البيئة بعمق، مثل القرارات المتعلقة بتوليد الطاقة النووية. من وجهة نظر لومان، إننا اليوم خائفون بشكل أساسي من المخاطر التي نسيطر عليها كأفراد، سيطرة جزئية فقط، بسبب تعقيد عملية اتخاذ القرار. وهكذا يرى لومان أن المجتمع الحديث ميل للمخاطرة، ويوضح بأن "المجتمع الحديث مواجه بالمخاطرة لا يمثل فقط نتاجا لتصور نتائج الانجاز التكنولوجي، بل إن بذرته موجودة في توسع امكانيات البحث، وفي المعرفة ذاتها". ويشير لومان إلى التأثيرات المسرطنة لأشعة (إكس) والتي ظهرت بعد استخدام التكنولوجيا الحديثة. وفي كتابه الأساسي "الأنظمة الاجتماعية" يرى لومان لا يجب أن يبنني على مبادئ انطولوجية (ما نفترض أنه موجود)، كما يرى أن التواصل لا يهدف إلى الاجماع. فالتواصل حسب هذه الرؤية ليس لعبة ذاتية وإنما لعبة تقوم على الاختلاف بين المعلومة والتوصيل. إن لها هدفا واحدا، وهو التواصل نفسه، الذي ينتج الاجماع كما ينتج الاختلاف. فالإجماع حسب لومان لا يمكنه تجاوز عوامل الإزعاج والإضطراب. في حين أنه بمساعدة التواصل قد نصل إلى فهم ما هو غير منتظر وغير مرغوب فيه. ويرفض لومان أن يقوم التواصل على العقل. وبدل ذلك يرى أن عليه أن يقوم على الصراع أو ما يسميه بالاستقرار الدينامي، فالصراعات في نظره تحافظ

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص123.

على مرونة النظام وقابليته المستمرة للتعلم. ويتساءل لومان في كتابه عن العنصر المؤسس لهذه النظم، هل هو الفعل؟ أم التواصل؟

إن التواصل عند نيكولاس لومان ليس فعلاً، سيرورة التواصل ليست سلسلة من الأفعال. إن التواصل ليس مجرد فعل اخبار، بل هو حاصل تفاعل العناصر الثلاثة: الاخبار والخبر (المعلومة) والفهم. إنه اختلاف وليس بفعل. ورغم ذلك فإن الفعل يظل عنصراً أساسياً في تكوين التواصل، إنه فعل إعادة إنتاج النظام. لذلك فلومان يعتبر أنه ليس من الخطأ أن نفهم التواصل كفعل ولكنه فهم مع ذلك، أحادي البعد. إن التواصل في تصوره هو الوحدة الأولية للتأمل الذاتي والوصف الذاتي للأنظمة الاجتماعية.

إن السياق التواصلية هو بذلك عنصر ضروري للفعل الاجتماعي. يمثل هذا الجواب في حد ذاته، من جهة تجاوز لأنطولوجية ماكس فيبر الاجتماعية، والتي ترى أن وحدة العناصر معطاة مسبقاً، فيبر الذي يرى أن وحدة الفعل تجد مصدرها في الشعور الاجتماعي للفاعل. ومن جهة أخرى يمثل هذا الجواب تجاوزاً لتالكوت بارسونز الذي فهم النظام الاجتماعي كبناء تحليلي يقوم على الفعل، وعن طريق الفعل تنتقل الذات إلى النظام.

إن نظرية لومان عن البناء الذاتي هي أيضاً نظرية المرجعية الذاتية بامتياز. فوحدة النظام لا تتأسس أنطولوجياً. إنها هبة التواصل، نتاج عمليات النظام نفسه. فهي لا تقوم على شعور فاعلين وليست نتاج أبنية ومعايير معطاة مسبقاً، بإمكانها أن تحكم النظام وتتحكم بمساره. نظرية تنتقل من الوحدة إلى الاختلاف، تتجاوز مفهوم الهوية، إنها موت للذات. إن الإنسان في هذه النظرية لا ينتمي إلى النظام ولكن إلى البيئة

المحيطة. النظام مستقل عن الذات. في البدء كان الاختلاف وليس الهوية و " حين يدخل المرء إلى عالم التواصل، يتعذر عليه نهائياً العودة إلى جنة الأرواح البسيطة."<sup>(1)</sup>

---

<sup>1</sup> - رشيد بوطيب، مفهوم التواصل في الفلسفة: من الحقيقة إلى الاختلاف (هايرماس ولوهمان) من موقع [www.aljabriabed.net/n88-08-boutayeb](http://www.aljabriabed.net/n88-08-boutayeb.htm) .[.htm.15/12/2016](http://www.aljabriabed.net/n88-08-boutayeb.htm)

## الفصل الثاني: نظرية الصراع بعد ماركس

1 -الفداهرندورف (القوة والصراع والتغير الاجتماعي)

2 - لويس كوزر

3 - راندل كولينز

## الفصل الثاني: نظرية الصراع بعد ماركس.

### تمهيد:

يحدث الصراع الاجتماعي نتيجة لغياب الانسجام والتوازن والنظام والاجماع في محيط اجتماعي معين. ويحدث أيضاً نتيجة لوجود حالات من عدم الرضى حول الموارد المادية مثل السلطة والدخل والملكية. أما المحيط الاجتماعي المعني بالصراع فيشمل كل الجماعات سواء كانت صغيرة كالجماعات البسيطة أو كبيرة كالعشائر والقبائل والعائلات والتجمعات السكنية في المدن وحتى الشعوب والأمم. وتتجلى الفكرة الأساسية في القول إن قضية الصراع بين المجموعات البشرية هي في الواقع ظاهرة عضوية في الحياة الإنسانية والعلاقات السائدة بينها.

وتعد هذه النظرية كطليعة للفكر الماركسي، ومن جهة ثانية تعد بديلاً للنظرية البنائية الوظيفية. فهي من النظريات التي تنظر إلى الظواهر الاجتماعية في الماضي والحاضر والمستقبل على أنها نتيجة للصراع، كما تنظر إلى العملية الاجتماعية أساساً في ضوء الميل العدواني للإنسان، لا على أساس تعاون الجماعات، وتؤكد على الصراع كظاهرة محورية، أو كحقيقة خلاقية، أو على الأقل كشيء لاغنى عنه في الحياة الاجتماعية أكثر من كونه انحرافاً أو غير مقبول.

وتشير نظرية الصراع بعد ماركس إلى الماركسية الجديدة أو المحدثه، وكان هدفها هو الحفاظ على الإرث الماركسي الذي بدأ في التلاشي نتيجة لسقوط المعسكر الشرقي وفقدانه للعديد من دويلات كانت تحت سيطرة الاتحاد السوفييتي هذا من جهة، أما الأمر الثاني فهو عدم تحقق نبوءة كارل ماركس بسقوط الرأسمالية التي سيحل محلها

الاشتراكية ثم الشيوعية، بل أعقب ذلك انتشار سريع للرأسمالية في شتى أسواق المعمورة.

ولقد حافظت الماركسية المحدثه على مضمون الماركسية التقليدية مع تعديل طفيف في معنى الصراع الذي كان يقصد به ماركس انقلاب الطبقة الكادحة على أرباب العمل أو أصحاب السلطة الذين يمتلكون وسائل الانتاج من أجل أن تصبح هذه الوسائل ملكا لجميع الأفراد، اما الماركسيون المحدثون فيرون أن الصراع في طياته يحمل مضمون احترام النظام والسلطة واعتبار الصراع أداة للتغير والتحديث.

**أولاً- رالف داهرن دورف ( Ralf dahrendorf ):(القوة والصراع والتغير الاجتماعي).**

تبقى نظرية الصراع عند داهرن دورف مغلفة بالتصورات الماركسية، ولقد تجلت المشكلة الأساسية لنظرية الصراع التي نشأت لتجاوز البنائية الوظيفية في كونها تفنقر إلى أساس هي أحوج ما تكون إليه وهو الأساس الماركسي، وهذا ما تم على يد عالم الاجتماع الألماني رالف داهرن دورف الذي تضلع في الماركسية وسعى لأن يجعل من نظرية الصراع جزء لا يتجزء من التراث الماركسي.

ظل داهرن دورف لسنوات طويلة معروفاً على نطاق واسع ويحظى بالاحترام في كل من أوروبا وأمريكا الشمالية. وبينما كان مراهقاً في ألمانيا النازية، أرسل إلى معسكر اعتقال بسبب عضويته في جماعة المدرسة الثانوية المعارضة للدولة، واستمر انخراطه في الشؤون السياسية بشكل عميق، ثم أصبح عضواً ديمقراطياً حراً في البرلمان الاقليمي،

وفي برلمان ألمانيا الغربية، وكعضو في لجنة الجاليات الأوروبية، كان مسؤولاً عن العلاقات الخارجية، والتعليم، والعلم، والبحث. (1)

عمل داهرنودورف كأكاديمي في ألمانيا، وبريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية. ومن 1974 إلى 1984 كان موجهاً لمدرسة لندن للاقتصاد، إحدى أكثر مؤسسات التعليم العالي هيبية في بريطانيا. وفي عام 1984 عاد إلى ألمانيا لفترة قصيرة كأستاذ لعلم الاجتماع في جامعة كونستانس، ثم عاد إلى بريطانيا مرة أخرى كأمين لكلية شارع أنتوني، وجامعة أوكسفورد ومقيم في بيت اللوردات البريطاني، ويشار إليه باللورد داهرنودورف.

لقد أظهر عمل داهرنودورف في الصراع اهتمامين أساسيين: الأول، ما وصفه هو بنفسه بأنه "نظريات المجتمع" أي وضع المبادئ العامة للتفسير الاجتماعي. وهنا يشدد داهرنودورف على أساسية القوة، والصراع كنتيجة محتومة. وكما هو الحال بالنسبة لماركس، فإن اهتمامه الثاني بمحددات الصراع الفعال، أي الطرق التي تُؤلّد من خلال المؤسسات الاجتماعية نظامياً جماعات ذات مصالح متصارعة، والظروف التي تصبح من خلالها هذه الجماعات منظمة وفعالة. (2) وقام بشرح تلك الأفكار الصراعية الجديدة بناءً على توضيح الأفكار التي ستذكر فيما يلي.

## 1 - القوة والصراع والتفسير الاجتماعي عند داهرنودورف:

يرى داهرنودورف بأن هناك ميل متأصل للصراع في المجتمع، إن الجماعات التي تمتلك القوة سوف تناضل من أجل مصالحها، وكذلك الأمر بالنسبة للجماعة التي تفتقر إلى

<sup>1</sup> - روثوالس، مرجع سابق، ص.207.

<sup>2</sup> - روثوالس، مرجع سابق، ص.207.

القوة، ومصالح الجماعتين مختلفة بالضرورة. ويوضح داهرنдорف، بأنه عاجلاً أم آجلاً - وفي بعض الأنساق تكون جماعة القوة محصنة بشكل تام - فإن التوازن بين القوة والمعارضة يتغير، والمجتمع يتغير، وهكذا فإن الصراع يمثل "القوة الخلاقة العظمى للتاريخ الانساني".

## أ- القوة:

يعد توزيع القوة محددًا أساسياً حاسماً للبناء الاجتماعي، ويتبنى داهرنдорف، تعريف فيبر للقوة والذي يعرفها بأنها: "قدرة أحد الفاعلين في علاقة اجتماعية معينة على فرض إرادته بمقتضى موقعه رغم المقاومة، وبصرف النظر عن المرتكزات التي تستند عليها تلك المقدره." ومن وجهة النظر هذه، يتمثل جوهر القوة في السيطرة على الجزاءات التي تمكن أولئك الذين يمتلكون القوة من إلقاء الأوامر، ويحصلون على ما يريدون ممن يفتقرون إلى القوة. ورغم ذلك، فإن الناس لا يحبون الخضوع، ولهذا يجادل داهرنдорف، بأن هناك صراع مصلحة محتوم، وهناك دافعية لدى من يفتقدون للقوة إلى الصراع مع أصحاب القوة، كما أن الفاقدين للقوة يناضلون من أجل مواقع القوة بينما أصحاب القوة يدافعون عن مواقع قوتهم. فالقوة تمثل "المصدر الدائم للخلاف".<sup>(1)</sup>

إن هذه النظرة القهرية الحادة للقوة، والتي هي شائعة لدى معظم منظري الصراع، تختلف كثيراً عن تلك النظرة التي تبنتها الوظيفية، حيث أن بارسونز يعتقد بأن القوة متجسدة في المؤسسات السياسية التي تعمل على تلبية الضرورة الوظيفية المتمثلة في تحقيق الهدف. أما المقدره التي تمنحها القوة للمرء بحيث يحصل على ما يريد على حساب الآخرين يعتبرها بارسونز ظاهرة ثانوية وطارئة. إنوجهة نظر داهرنдорف تمثل

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص.208.

العكس، فالقوة ضرورية إذا كان للتنظيمات الكبرى أن تحقق أهدافها، وفي أوقات معينة، كما هو الحال في حرب دفاعية، يقوم أصحاب القوة بشكل واضح جداً بتنفيذ الأهداف العامة للجماعة. ورغم ذلك، فإن ما يعتبره بارسونز ثانوياً للقوة، يعتبره داهرنورف أساسياً. إن أصحاب القوة لم يُمنحوا القوة من قبل المجتمع لينفذوا بعض الإرادة العامة، لكنهم يحشدون القوة ويستخدمونها لغايتهم الخاصة.

رغم ذلك، لا يرى داهرنورف النضال من أجل القوة باعتباره خلاصة الحياة الاجتماعية. إن تعريف فيبر (وداهرنورف) للقوة يتضمن فاعلين " في علاقة اجتماعية" أي، في مواقف تكون فيها أفعال الناس الآخرين هامة، لكن هناك كذلك أوقات يكون فيها للناس الحرية ليقوموا بفعل ما يريدون دون الاهتمام بالناس الآخرين على الإطلاق.

## ب- المعايير:

يوضح داهرنورف، كما هو الحال بالنسبة لمنظرين صراعيين آخرين، بأن المعايير الاجتماعية لا تظهر أو تنبثق عن الاجماع الاجتماعي. ويرى بأن نظرية الصراع ترى، خلافاً للوظيفية، بأن المعايير "تؤسس وتُصان... من قبل القوة، ويمكن أن يتضح جوهرها بالاستناد إلى مصالح صاحب القوة، ويمكن النظر إلى هذا الأمر انطلاقاً من حقيقة أن المعايير تدعم بالجزءات. إن الأمثلة الحيوية لما يعنيه داهرنورف توجد في الصين، حيث يخاطر المنشقون السياسيون بالسجن أو مخيمات العمل. وبالمقابل فإن الجزاءات تتضمن السيطرة واستخدام القوة، وبشكل خاص قوة القوانين والعقوبة، وفي آخر تحليل يقترح داهرنورف بأن المعايير المؤسسة ليست سوى معايير".<sup>(1)</sup>

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص.209.

## ج- التدرج الاجتماعي:

يميز داهرنودورف بوضوح بين حقيقتين: الأولى، أن المواقع والأعمال مختلفة وتتطلب مهارات مختلفة. والثانية، تُعامل الأعمال المختلفة بوصفها "علياً" أو "دنياً" بالنسبة لبعضها البعض. هناك تفاضل اجتماعي للمواقع... وتفاضل اجتماعي يركز على الصيت والثروة ويتجلى ذلك في نظام تراتبي للمكانة الاجتماعية. إن التدرج الاجتماعي هو ما يجعل رؤساء الجامعات بوجه عام أكثر احتراماً من سائقي الحافلات، يوضح داهرنودورف بأن التدرج ينتج عن المعايير التي تصنف بعض الأشياء على أنها مرغوبة وأشياء أخرى على أنها غير مرغوبة. وفي كل جماعة تحدد المعايير حسب الكيفية التي ينبغي فيها على الناس أن يتعصبوا ضد أولئك الذين لا يطيعون معايير الجماعة. وعلى سبيل المثال، في بعض جماعات المراهقين قد يعتبر تعاطي المخدرات والسلوك الاجرامي هو المعيار، بينما في جماعات أخرى ينظر إلى تعاطي المخدرات كعلامة ضعف. علاوة على ذلك فإن كل مجتمع لديه معايير عامة تحدد خصائص ما هو جيد. يوضح داهرنودورف بأن تلك المعايير تمثل أساس التدرج الاجتماعي، وهي بذاتها تشتق وتدعم بواسطة القوة، ولهذا السبب، مرة أخرى، فإن القوة تمثل المفهوم المركزي.<sup>(1)</sup>

إن هذا التفسير مختلف تماماً عن تفسير الوظيفيين، الذين يوضحون بأن التدرج الاجتماعي يشتق من حاجة المجتمع إلى جذب الناس الموهوبين إلى المواقع الهامة. ورغم ذلك، يصرح داهرنودورف بأن التفسيران لا يكونان متعارضين بالكامل. إن داهرنودورف لم يوضح كيف تصبح الجماعة صاحبة قوة في المقام الأول، ولكن هذا

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص.210.

سوف يعتمد غالباً، وعلى الأقل بشكل جزئي، على المهارات التي تقدمها ونوع النظام الاجتماعي الذي يعتبر ذا قيمة بالنسبة للناس. ليس كل الجماعات الحاكمة الناجحة تعتبر معتدية عسكرياً! إن الأمر بشكل دقيق يعتمد على وجود العلاقة بين القوة والقيم الاجتماعية العامة التي تركز عليها الوظيفية. ورغم ذلك، فإن الجماعة التي تحقق القبض على القوة سوف تناضل من أجل الحفاظ على موقفها وجني الفائدة منه، وستعمل على اقناع كل واحد بشرعيتها وأهميتها، وستمنع الجماعات المنافسة لها، والتي تقوم على مرتكزات القوة. إن منظور داهرنдорف أكثر موائمة لتحليل هذه العملية من الوظيفية. (1)

#### د- محددات الصراع: نظرية جماعات الصراع.

في عمله الأكثر شهرة، والموسوم "الطبقة والصراع الطبقي في المجتمع الصناعي" (class and class conflict in industrial society) يوجه داهرنдорف السؤال التالي: متى تنتج أشكال اللامساواة المختلفة والمصالح المتصارعة بشكل فعلي؟ إن فكرته المركزية تتمثل في أن الصراعات الاجتماعية تلقى مكاناً لها، بشكل نظامي، بين جماعات تختلف من حيث السلطة التي تتمتع بها وتمارسها على الآخرين. ويعني داهرنдорف بالسلطة (ويتبع مرة أخرى فيير) نوعاً من القوة يكون ملتصقاً بالدور الاجتماعي أو الموقع والذي يحظى بالشرعية لكونهم معرفاً ومحدداً بواسطة المعايير الاجتماعية، كما يدعم بالجزاء تلك التي تعود إلى تلك المحددات. (2) مثلاً الجامعة لديها السلطة التي تخولها بفرض مبلغ من المال كرسوم التسجيل أو السكن... ولكنها

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص.211.

<sup>2</sup> - نفس المرجع، ص.211.

لا تملك السلطة لتأخذ كل المال، ولكن بالمقابل السفاح يستطيع فعل ذلك دون أن يملك السلطة لفعل ذلك.

فبالنسبة لداهرندورف تسبب الأنماط المستقرة والمتواترة الصراع الاجتماعي بين من يملكون درجة من السلطة وأولئك الذين لا يمتلكونها، ويسمى داهرنندورف تلك الجماعات بأنها "طبقات" ويعني مصطلح الطبقة لديه جماعات صراع تتوالد بواسطة التوزيع التفاضلي للسلطة في الروابط المتناسقة بالقسر، أي التنظيمات التي تتضمن اعطاء الأوامر وتلقيها.

وهكذا توضح نظرية داهرنندورف بأن السلطة تنقسم إلى قسمين: إما أن تمتلكها أو لا تمتلكها، وتتشكل مصالحك تبعاً لذلك. وقد أشار الناقدون إلى أنه سواء كنت تمتلك سلطة أكثر أو أقل، قد تكون بنفس الدرجة من الأهمية. وهكذا يمكن أن يتشكل الصراع حول تجمعات أخرى. لكن داهرنندورف يؤكد مع ماركس، بأن الصراع يتضمن فقط جانبين، ومن ناحية أخرى، فإن جميع الطبقات لا تدخل في صراعات فعلية في جميع الأوقات. ولهذا السبب يحاول داهرنندورف أن يوضح متى سيحقق الناس حراكاً فعلياً.<sup>(1)</sup>

## هـ - تعبئة الطبقات:

إن المتطلبات البنائية بالنسبة للناس حتى يشكلوا "جماعة مصلحة" فعالة هي "تقنية" و"سياسية" و"اجتماعية". فمن الناحية التقنية، يوضح داهرنندورف أن الجماعة تتطلب وجود مؤسس، ودستور أو ايدولوجيا لكي تصبح فعالة. ومن الناحية السياسية، فكلما كانت الدولة ليبرالية، تكون احتمالية التعبئة أكبر نحو صراع فعال. وكلما كانت الدولة شمولية، تكون الاحتمالية أقل. ومن الناحية الاجتماعية، هناك ثلاثة عوامل اجتماعية

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص.212.

هامة، أولاً: إن تشكل الجماعة أكثر احتمالية إذا كان الأعضاء المحتملين للجماعة مركزين جيداً من الناحية الجغرافية. ثانياً: إذا استطاع الأعضاء أن يتواصلوا بسهولة (يمكن أن تجعل تكنولوجيا الاتصال تواصلهم أسهل). ثالثاً: إذا كان الأفراد الذين يقفون في نفس العلاقة بالنسبة للسلطة قد تم ضمهم للجماعة بنفس الطريقة، وجاءوا مثلاً، من نفس العائلات أو التنظيمات التعليمية.

## ثانياً - لويس كوزر.

ينظر لويس كوزر إلى المجتمع كوحدة نسقية يتكون من أجزاء مترابطة ويقر باللامساواة والتباين في البناء الاجتماعي وعندما أقر التباين عندئذ سوف لن تحدث توترات بالعلاقات، إذن يمكن الجمع بين أوجه التكامل والصراع إذ يمكن أن يكون الصراع وظيفياً يعمل على تقوية التضامن داخل الجماعة عندئذ سيكون وظيفياً للنسق الاجتماعي أو بعض أجزائه، وتركيز كوزر على وظائف الصراع دفعه إلى الاهتمام بأنواع الصراع وخاصة الخارجي والداخلي وكذلك بالأسباب والظروف التي ترتبط بتباين أوجه الصراع ودرجة العنف ومداه الزمني، واستتبط لذلك فرضيات هي:

- كلما قلت الطرق الشرعية للتعبير عن اللامساواة في توزيع الموارد كلما زاد احتمال التساؤل حول شرعية النظام القائم.
- كلما زاد توجه المحرومين قاصدين عضوية الفئات المميزة ولم تنهياً لهم فرص كلما زاد عدم اعترافهم بالشرعية.

من هتين الفرضيتين يتضح أن كوزر يعتقد أن عدم المشاركة في القيم الأساسية التي تعتبر من أسس شرعية النظام يقود الطرف غير المشارك إلى الاعتقاد بعدم

شرعيته مما قد يؤدي إلى صراع داخلي نتيجته احتمال هدم النظام القائم، كان هذا من جانب أوجه الصراع. أما حدة الصراع فيربطها كوزر بالجانب الوجداني والذي يمكن أن يظهر بقوة على مستوى العلاقات الأولية، وكذلك ربطها بالالتزام الايديولوجي والعقائدي ومثال ذلك الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية والصراع حول عقائد دينية، فعندما يتمسك أطراف الصراع بايديولوجيتهم سوف تتعطل احتمالات الحل، وترتبط حدة الصراع كذلك بمصالح حقيقية تشكل مصدراً موضوعياً إذ سيكون عندئذ حقيقياً يمثل وسيلة لغاية حقيقية واقعية،<sup>(1)</sup> أما إذا تحول الصراع إلى غاية عندئذ ستطغى عليه مظاهر العنف ويرتبط بالعواطف ويستمر أطول ويزداد عنفه أكثر، ولتجنب هكذا صراع تحاول المجتمعات مأسسة وتنظيم عمليات الصراع في حالة قيامها فتُشرع قوانين وأعراف لحل النزاعات ولكن هذه أحياناً تسد الطريق أمام المتضرر مما يجبر على تجاوزها وعدم الاعتراف بشرعيتها، إن اعطاء كوزر اهتمام للجانب الوظيفي للصراع أكثر من اهتمامه بالجانب اللاوظيفي لأن الأول يحقق عملية التكامل والتكيف فالصراع الخارجي مثلاً يزيد من تضامن الجماعة وتلاحم أفرادها وفتتها في حين يؤدي الصراع الداخلي إلى اكتشاف علاقات توافقية جديدة كما تظهر وسائل جديدة لإدارة الصراع وأن الصراع بوجهيه الداخلي والخارجي يؤدي إلى تطوير المستويات التقنية.

ونجد في كتابه المعنون "وظائف الصراع الاجتماعي" تعريف الصراع الاجتماعي بأنه "حول قيم وأحقية المصادر والقوة والمكانة النادرة وحيث يستهدف الفقراء المتخاصمين من خلاله، تحييد منافسيهم أو الإضرار بهم أو التخلص منهم".<sup>(2)</sup>

<sup>1</sup> - شاكِر حسين حناشلي، نظريات معاصرة في علم الاجتماع، الأكاديمية العربية المفتوحة في الدانمارك، ص. 35.

<sup>2</sup> - محمد عبد الكريم الحوراني، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع (التوازن التفاضلي صيغة بين الوظيفية والصراع)، مرجع سابق، ص. 102.

تكمُن أهمية نظرية كوزر في أنها توضح أن الصراع لن يسبب في الغالب شقاقاً اجتماعياً ولا مصدراً للتغيير. إلا أن هذه الفكرة ليست سليمة إلى حد بعيد خصوصاً لما نكون بصدد الحديث عن مجتمعات هشة، تلك التي قد يسبب الصراع فيه شقاقاً، على عكس المجتمعات الصلبة يمكن أن تدوم دون صراع تدميري. كما يمكن القول إن كوزر درس ظاهرة الصراع من خلال وظائف الصراع الإيجابية في البناء الاجتماعي والاستمرار والتقدم في بناء المجتمع وليس تهديمه.

### ثالثاً – راندال كولينز.

يرى كولينز أن دراسة الصراع يجب أن تعتمد على الواقع وتتضمن تحليل العلاقات السببية التي قد تعكس الواقع وتظهر ارتباط وعلاقات الوحدات فيه واعتمد كولينز في محاولته بناء نظرية في الصراع على مصادر مختلفة ومتنوعة أهمها كتابات فيبر وماركس ودوركايم وشوتز وغوفمان والتفاعليين الرمزيين، فوضع كولينز الافتراضات التالية:

- الانسان كائن اجتماعي ولكنه أيضا صراعي.
- يوزع النظام الاجتماعي الأفراد حسب المصادر المتاحة لكل منهم.
- تتنافس الجماعات المتباينة على تملك أكبر قدر مما هو مرغوب فيه.
- في كل مجتمع تتباين فيه ملكية ما هو مرغوب فيه كالثورة والقوة والاعتبار والسلع ذات القيمة (للمساواة في توزيع الموارد النادرة فيه).
- يحاول كل فرد تعظيم مكافئته الذاتية بما يمكن ان يحصل عليه من الموارد النادرة المرغوب فيها وذات القيمة.

- يعيش الناس في عوالم أقاموا بنائها ذاتياً (عالم معاني، حقيقة عقلية، ما يحملونه من أفكار ومعتقدات وتصورات).
- يحاول الآخرون التأثير في التجربة لهؤلاء (من يمتلك القوة يصبح أقدر على تشكيل أنماط الثقافة والايديولوجيا وأقدر على تشكيل وعي الآخرين).
- هناك صراع إذن حول القدرة على التأثير أو حتى التحرر من تأثير الآخرين.
- يحاول كل انسان أو أي طرف في عملية الصراع أن يستثمر كل ما لديه من مصادر للظهور بوضع أفضل.

إذن الصراع هو نتيجة سببية لعدم المساواة في ملكية ما هو مرغوب فيه كالقوة والثروة والجاه والسلع ولذلك يسعى الانسان لتقوية مكانته وموقعه بتعظيم ما يملك من هذه الموارد فكلما ينجح يمتلك أكبر قدر منها يسعى لتثبيت موقعه وتعظيم مصالحه واستخدام كل الوسائل بما فيه القهر والسيطرة ويسعى لتزييف وعي الآخرين وانتاج نمط ثقافي يعزز تميزه أي يحاول اعادة انتاج الوضع الذي يعمل لصالحه وبالمقابل يسعى المحرمون وفاقدو القوة إلى تغيير الوضع القائم لأن الانسان يكره الخضوع ويقاومه ومن هذان الموقفان المتناقضان تولد الصراع.<sup>(1)</sup>

تجمع محاولة كولينز بين المستوى الفردي الذاتي والجماعي والموضوعي في تناول عملية الصراع كما تأخذ بمصادر متنوعة للصراع كالجوانب الاقتصادية، السياسية، الاجتماعية، الثقافية، وقيمة كل مسبب للصراع من هذه الجوانب يعتمد على الواقع والاطار الثقافي الذي يحدد (ما له قيمة) و(ما هو مرغوب فيه)، ولكن محاولة كولينز

<sup>1</sup> - شاعر حسين خناشلي، نظريات معاصرة في علم الاجتماع، الأكاديمية العربية المفتوحة في الدانمارك، مرجع سابق، ص. 36.

هذه أغفلت بحث أوجه الصراع ودرجة حدّته ودرجة عنفه التي يمكن أن تصاحب الصراع كما أغفل وسائل حل النزاعات والصراع، إن من أهم مشكلات دراسة الصراع هي عدم تحديد معنى لمفهوم الصراع فقد تعددت مضامينه لتشمل العداة والحرب والتوتر والتناقضات والنزاعات واختلاف الرأي والثورة.

ولعل اختلاف مستويات الصراع من فردي إلى جماعي إلى مجتمعي إلى تكتلات دولية يتطلب تحديد أطراف الصراع ومضمونه وأوجهه الواقعية وتحديد طبيعة العلاقة ونوع ودرجة الصراع وبهذا لا يمكن أن يصاغ معنى للصراع إلا على أساس ما يحدث بالواقع لأنه لا يخلو مجتمع إنساني من وجود درجة من الصراع سواءً ظاهر أو كامن لكن يبقى محوره الذي يقوم عليه هو اللامساواة ويختفي الصراع نهائياً بالمساواة وهذا لا يتحقق إلا بالمعتقد الديني المذهبي بظهور أو بالفكر الدنيوي بانتصار الشيوعية.

## الفصل الثالث: البنيوية التكوينية والبنيوية الجينية

أولاً: نوربرت إلياس

ثانياً: بيير بورديو

1 - الهابيتوس

2 - رأس المال

3 - المجال

ثالثاً: أنطوني غيدنز، نظرية الانعكاسية الاجتماعية

## الفصل الثالث:

### البنوية التكوينية والبنوية الجينية.

#### **أولاً-نوربرت إلياس والبنوية التكوينية (Norbert Elias)**

عالم اجتماع ألماني 1897 - 1990 وفق في دراساته السوسيولوجية بين الفرد والمجتمع أي الفعل وبنية المجتمع على غرار بيير بورديو ولوسيان غولدمان وغيدنز... وغيرهم، أي يجمع بين الفهم والتفسير، بين الذات والموضوع، بين الحتمية والحرية، بين المنهجية الكلية لدوركايم والمنهجية الفردية لماكس فيبر ويسمي هذا الجمع بالإنبناء السوسيولوجي. لا فرق بين السوسيولوجيا والسيكولوجيا عند نوربرت إلياس، ولا سيما أن الباحث يدرس المجال العاطفي والشعوري والانفعالي والوجداني لدى الكائن الانساني، في ضوء المقاربة السوسيولوجية.

وجه إلياس نقداً لاذعاً لكل من البنائية والوظيفية على السواء، لأنهما اعتبرا الأفراد أشياء مادية، وعالجا العمليات الاجتماعية معالجة ميكانيكية. وبدلاً من ذلك حاول إلياس أن يطور علم الاجتماع التشكيلي أو علم اجتماع العمليات الاجتماعية الذي يشخص الفردية تشخيصاً ملائماً. ولذلك فقد درس العمليات الاجتماعية بدلاً من النسق الاجتماعي الافتراضي الذي لم يره موجوداً خارج الناس. ويزعم إلياس أن التصور الشائع عند انقسام الفرد/المجتمع يحدث كجزء من عملية الحضارة - المحور الأساسي لاهتماماته البحثية. وقد تطورت عملية الحضارة كقيود عامة خارجية على السلوك، ثم يحل محلها بالتدريج تنظيم أخلاقي فردي داخلي. ويؤمن إلياس أن على علم الاجتماع أن ينظر إلى السلوك الفردي على أنه جزء من سلاسل من التساند الاجتماعي. وكلما

صارت هذه السلاسل أو الشبكات أكثر ابتعاداً عن الفرد، تصبح أكثر اصطفاً بالطابع اللاشخصي. ومع ذلك فهذه السلاسل أو الشبكات هي حلقات من الفعل وليست أنساقاً منفصلة عن الناس.<sup>(1)</sup>

وفي هذا الإطار يفضل إلياس مفهومي اللعبة واللاعبين بدل الفرد والواقع الاجتماعي، أي يشبه الواقع المجتمعي بالعبة، أما الفاعلون، فيطلق عليهم مصطلح اللاعبين. بمعنى أن اللاعب عندما يحرك عنصراً من عناصر الشطرنج، فإنه يولد لدى الطرف الآخر رد فعل، وعندما يحرك الطرف المقابل عنصراً من عناصر اللعبة، يقوم الآخر برد فعل معاكس، وهكذا....

وإذا أخذنا مثال كرة القدم، فلا يمكن فهم تصرفات اللاعبين وحركاتهم وسلوكياتهم إلا في سياق اللعبة، إذ تستلزم كل حركة رياضية رد فعل من اللاعب المنافس أو المقابل.

وقد تجاوز نوربرت إلياس بعض المفاهيم السوسيولوجية كمفهومي الماكرو والميكرو، فما يبدو ماكرو قد يكون ميكرو، والعكس صحيح أيضاً، قد تكون العلاقة الدولية ماكرو. في حين، تكون العلاقة الوطنية ميكرو. بيد أن هذه العلاقات الوطنية قد تكون ماكرو، مقارنة بالظواهر الميكروسوسيولوجية الأخرى. كما يرفض المفاهيم التطورية واللاهوتية تجاه التاريخ.

إلا أنه لا يمكن فهم آراء نوربرت إلياس إلا من خلال استعراض مضامين كتبه السوسيولوجية. ففي كتابه (حول سيرورة الحضارة) الذي صدر سنة 1939، يتناول

<sup>1</sup> - مصطفى خلف عبد الجواد، قراءات معاصرة في نظرية علم الاجتماع، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية - كلية الآداب، جامعة القاهرة 2002، ص. 171.

ثلاث قضايا، وهي: حضارة آداب السلوك، دينامية الغرب، ومجتمع البلاط. ومن ثم فهو يهتم بتطور البنيات النفسية والذهنية والوجدانية عند الأفراد والجماعات، في تماثلية مع تطور البنيات السياسية والمجتمعية. ومن ثم فهو ينطلق في هذا الكتاب من سوسيولوجية تاريخية ونفسية. وعليه، فهو يتناول مفهوم الحضارة في أوروبا الغربية بدون إحياءات إيجابية، وبالتالي فهو يعتمد على سوسيولوجيا عامة تجعل الانسانية إطاراً عاماً لها. ما يعني أنه يهتم بحضارة القيم في الغرب اعتماداً على البحث التاريخي والسوسيولوجي، حيث رصد آداب السلوك في الحضارة الغربية، منذ العصور الوسطى إلى غاية القرن العشرين.

وتتبع نوربرت إلياس آداب السلوك في أوروبا الغربية من فترة زمنية لأخرى، ومن مكان إلى آخر، معتمداً على السوسيولوجيا العامة. حيث لاحظ السلوك في حياة الناس كالذهاب إلى الحمام (العري) وكيفية استخدام الجسد وعرضه، وآداب الطاولة... فمن خلال مثل هذه الأحداث أدخل في التحليل السوسيولوجي للغرب مفهوم حضارة آداب السلوك: فتمثل الحضارة لديه آداب السلوك، حيث تحولت الكثير من قواعد السلوك من البربرية والعنف والحرية دون الاهتمام بالغير. وفي القرن السادس عشر بدأ يظهر ما يسمى (اللياقة، وآداب الطعام، وقواعد الحياة، والحشمة) وذلك بالقوننة عن طريق البلاط. وفي القرن الثامن عشر استولى البورجوازيون على آداب السلوك هذه. وفي القرن التاسع عشر بلغت الحركة أوجها وشاعت، فكان ذلك العصر، عصر أخلاق طهرية "النظافة أو العناية الصحيحة".<sup>(1)</sup>

<sup>1</sup> - فيليب كابان وجان فرانسوا دورتييه، علم الاجتماع، ترجمة إياس حسن، دار الفرقد، دمشق، سوريا، ط.1، 2010، ص.ص. 181 - 182.

ويرى إلياس أن سلطة الدولة هي المحرك الحقيقي للحضارة، فقد تحول المحاربون الاقطاعيون إلى نبلاء البلاط، وشكلوا ما يسمى بالسلطة الملكية. ومن ثم فرض الأمير أو الملك قواعد اللياقة على حاشيته والمحيطين به، ثم ترابط المجتمع عضوياً ووظيفياً، بعد صعود البورجوازية، وازدياد تقسيم العمل بين أفراد المجتمع الواحد، وكانت آداب السلوك خاضعة للمراقبة الذاتية والضبط الداخلي.

وبالتالي، بلغت آداب السلوك في القرن التاسع عشر الميلادي قمة الرقي والتهديب والتطهير الأخلاقي والمحاسبة الذاتية. فهو عصر الممنوعات والمقموعات والمكبوتات فيما يخص الجنس، والنظافة، واللياقة واستخدام العنف، بل وأصبحت تلك المعايير الانضباطية ثقافة. وقد كتب إلياس "أن تطور آداب السلوك في جانبه الحديث، يتصف باستبطان متزايد للمعايير، مما يجعل الآليات الاجتماعية للمنع لا ضرورة لها. بالنسبة له، ليست الحضارة فقط مسألة لياقة في المجالس الرسمية، فهو يعلم جيداً أن هناك ممنوعات وطقوساً معقدة قد توجد عند شعوب تعتبر بدائية. فحركة الحضارة تسير عن طريق مبادئ كونية، وتصيب وعي الفرد بالذات باختصار، لم يعد الأمر متعلقاً فقط بقواعد السلوك، بل بمشاعر داخلية إحساساً بالذنب وندماً، وتعيد إنتاج نفسها بنفسها، وتشبه الكبت عند فرويد." (1)

أما في كتابه (مدخل إلى سوسولوجيا المعرفة) فقد استعمل نوربرت إلياس مفهومي الإلتزام والحياد، ويحيل المفهومين معاً على ثنائية الذاتية والموضوعية. وهذا يعني أن يبحث الدارس عن الطريقة التي ينبغي أن يتعامل بها السوسولوجي مع الظواهر المجتمعية. فهل سيبقى محايداً أم يُدخل ذاته في البحث؟

<sup>1</sup> - فس المرجع، ص. 183.

وفي هذا يرفض إلياس دراسة الظواهر المجتمعية دراسة علمية وضعية فحسب، بالاعتماد على التفسير والمقارنة والتكميم الرياضي والإحصائي، لأن ذلك يخلق نوع من الحياد الوهمي. لذا، يجب الجمع بين الذاتية والموضوعية من جهة، أو بين الفهم والتفسير من جهة أخرى.

واستخدم إلياس مفهوم الهابيتوس (Habitus) في الثلاثينات من القرن العشرين، قبل أن يستعمله بيير بورديو في كتابه السوسيولوجية المتنوعة. ويعني به إلياس تلك المعرفة المجتمعية المستضمرة أو المخزنة لدى الأفراد بشكل غير واع، وتجزر مع الوقت بفعل الأسرة أو المؤسسة أو الحزب. ويحيل هذا على التنشئة الاجتماعية أو التطبع أو الاندماج الاجتماعي، أي تشرب الأفراد لمجموعة من المعايير والقيم والعادات المجتمعية، بفعل الاحتكاك والتطبع والتماثل مع البنيات الموضوعية. ويتميز الهابيتوس بالديمومة والتحول والتطور التاريخي، وانتقاله من جيل إلى آخر.

## ثانياً- بيير بورديو والبنوية الجينية.

يتبنى بيير بورديو البنوية الجينية على المستوى السوسيولوجي، بمعنى أنه يوفق بين الفعل والبنية، أو يجمع بين دور الفاعل الاجتماعي وبنية المجتمع، فكل واحد من هذين العنصرين يؤثر في الآخر. ولقد تعامل بورديو مع البنية الاجتماعية على شكل حقول حيث استحدث مفهوم الحقل ليشير إلى بعض المعاني التي كانت تشير إليها كلمة بنية في النظرية البنوية. إن هذا السعي إلى بناء نظرية نقدية اجتماعية حول الانتقال من البنية إلى الفعل أو من الفعل إلى البنية هو ما نتجت عنه نظرية الممارسة الاجتماعية.

وفي هذا الصدد يقول بورديو: "... من خلال بنيوي أو بنيوية، أريد أن أقول إنه يوجد في العالم الاجتماعي ذاته ليس فقط في المنظومات الرمزية والكلامية والأساطير.... بنى موضوعية ومستقلة عن ضمير وإرادة الأعوان الذين هم قادرون على توجيهه أو إخضاع ممارستهم أو تمثلاتهم. ومن خلال بنائية أعني بأنه توجد نشأة اجتماعية من جهة لبنى الإدراك والتفكير والفعل.... ومن جهة أخرى البنى الاجتماعية." (1)

وبالتالي ففي البنيوية الجينية ينطلق بورديو من رؤية المدى الاجتماعي (المدى الحيوي) كحقل من الصراعات الاجتماعية التي تقع في نطاق الطبقات. هذه الصراعات الطبقة التي ينبغي النظر إليها بعيداً عن المحتوى الماركسي التقليدي للصراع الطبقي، بل بمحتوى أحد المفاهيم المركزية في البنيوية الجينية وهو الهابيتوس بوصفه منهجية ذات محتوى ثقافي وظيفتها إعادة إنتاج الصراع الطبقي بل وتكريسه عبر المحتوى الثقافي. فكيف عمل بورديو على اخراج البنيوية الجينية منهجياً؟ وماهي منطلقاته المركزية؟

وفي هذا الإطار كان هم بورديو ردم الهوة بين الذاتي والموضوعي، سواء في أوجه الحياة الاجتماعية، أو على مستوى التنظير. ولإيجاد حل لمشكلة الموضوعية والذاتية، وعلاقة الفرد بالجماعة، من خلال ثلاثة مفاهيم أساسية هي: الهابيتوس (المنطلقات الشخصية)، والمجال ورأس المال.

<sup>1</sup>-Pierre Bourdieu, chose dites, ed. Minuit, Paris 1987, p.147.

## 1 - الهابيتوس:

يعتبر الهابيتوس من المفاهيم الأساسية فيما يسمى بعلم الاجتماع العملي، أو علم اجتماع الممارسات. فعملية التنشئة ضمن طبقة اجتماعية يساهم في تشكيل المنطلقات الفردية (الهابيتوس). ويترتب على تلك المنطلقات ممارسات فردية وجماعية، وتؤكد أهمية الخبرات في تشكيل الإدراك والفكر والفعل. ترتبط المنطلقات في تشكلها بالطبقة، بحيث تتوحد والمنظور الطبقي، مما يسمح بالقول إن هذه الطبقات تصبح أساساً للتنبؤ بسلوك يتناسب مع الحس العام.

فترتبط المنطلقات الذاتية للفاعل بما تأثر به من ظروف موضوعية في محيطه الاجتماعي، بما استدمجه الفرد اجتماعياً وثقافياً، مما يجعل اختيار الفعل مرتبطاً بالجانبين الموضوعي والذاتي. وفي الوقت الذي تساهم فيه البناءات الموضوعية في تشكيل المنطلقات الفردية وتوجهاتها، فإن الأفراد يعملون على تشكيل تلك البناءات. فالهابيتوس الذي يمثل المنطلقات الشخصية يشترك في إنتاج الأفعال والحياة الاجتماعية، وبهذا فهو يمثل مفهوماً يجمع بين الذاتية والموضوعية، بحيث يمثل التقاطع الدينامي بين البناءات والفعل، وبين الفرد والجماعة. <sup>(1)</sup> فالهابيتوس إذاً يتشكل من خلال تفاعل الفرد مع محيطه الاجتماعي. ويرى بورديو أن التباين في البناء الاجتماعي، وخاصة طبقياً، يترتب عليه اختلافاً في المنطلقات والرؤى، أي في الهابيتوس، الأمر الذي يجعل من هذا التباين أحد أوجه التناقض في المجتمع.

<sup>1</sup> - ابراهيم عيسى عثمان، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، دار الشرق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2008، ص. 168.

## 2 - رأس المال:

وبعني بورديو به تملك ما يؤهل الإنسان للتحكم والسيطرة على مستقبله والأخرين. وبهذا ترتبط ملكيته بتملك مصدر القوة، وبناء عليه يحاول كل إنسان تعظيم ما يمكن أن يملك من أشكال رأس المال ذات القيمة. فملكية الأشكال المؤثرة من رأس المال ترتبط بأسس التوزيع الطبقي، وإعادة تركيبه. ولا ينحصر معنى مفهوم رأس المال هنا بالملكية الاقتصادية، بل يتعدى هذا ليشمل أشكالاً أخرى من رؤوس الأموال أهمها رأس المال الاجتماعي والثقافي الذي يمثل رأس المال الرمزي.<sup>(1)</sup>

يرى بورديو أن رأس المال الاقتصادي أكثر أهمية في النظام الرأسمالي، حيث يمكن تحويله إلى أشكال أخرى من رؤوس الأموال، حيث يمكن ضمان استمراره عن طريق التوريث. وهذا قريب من الطرح الماركسي المادي. وفي الوقت نفسه يقترب من تحديد فيبر لمفهوم الطبقة. ويختلف بورديو عنهما في تركيزه على الجانب الرمزي لرأس المال. هذا الطرح يعطي لكل شكل من رأس المال أهمية. فرغم أهمية رأس المال الاقتصادي، إلا أن أهميته ترتبط برأس المال الرمزي، كما هو لدى المتعلمين والمتقنين، يمكن أن يلعب دوراً ثورياً وأن يوظف في تبرير الواقع واستمراره. فيمكن أن تقوم فئات من المتعلمين والمتقنين بوظيفة تبرير هيمنة الطبقة المسيطرة، بإيجاد شرعية للتفاوت الطبقي.

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 170.

### 3 - المجال:

يشير في معناه إلى نشاط محدد في الحياة، له تنظيمه وقواعده، التي تتضمن تراتب مكانات وضع متباينة، كما هو الحال في مهنتي الطب والهندسة. ويتشكل هذا التباين بين أعضاء المجال على أساس التباين في ملكية أشكال رأس المال، وحيث يتجمع من يتمثلون في ملكية رأس المال في أوضاع مكانية متماثلة. "فالمجال الاجتماعي يتشكل بنائياً، بحيث يتم توزيع الأفراد والمجتمعات داخله على أساس توزيع إحصائي، على أساس مصدرين، وخاصة في المجتمعات الحديثة المتقدمة، هما رأس المال الاقتصادي ورأس المال الثقافي". (1)

تتضح أهمية المجال، خصوصاً في المجال الثقافي، في أن التوزيع التراتبي فيه، يرتبط بتوزيع القوة، والعلاقات الطبقية. وتعتمد القوة المرتبطة بالمجال عامة على القدرة على فرض حدود ومعايير على أعضائه، بما فيهم من هم في أعلى السلم، وبهذا يصبح أصحابه أكثر قدرة على الاستجابة للمتطلبات الخارجية.

يتضح ان هذه المفاهيم التحليلية للمجتمع والسلوك، من أشكال رأس المال والمجال والهابيتوس، لا تنحصر أهميتها في ذاتها، بل في ارتباطها، ومدى صلاحيتها في تحليل الواقع. حيث يرى بورديو أن الممارسة الاجتماعية تتحقق في أحد المجالات، فرأس مال العضو في المجال يرتبط بهابيتوس الطبقة، والمجال هو الحقيقة الموضوعية التي تتضمن تشكيل الهابيتوس، وبهذا فالهابيتوس انعكاس للذات في كل ممارسة، وهو في الوقت نفسه مكتسب يرتبط بالظروف الموضوعية الاجتماعية التاريخية، والمرتبط أصلاً بملكية أشكال رأس المال.

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 171.

## ثالثاً: أنطوني جيدنز: نظرية الانعكاسية الاجتماعية.

يشير مفهوم "الانعكاسية الاجتماعية" إلى أننا نقوم على الدوام بالتفكير في الظروف التي تكتنف حياتنا وفي تأملها والتمعن فيها، بما في ذلك أنماط السلوك والممارسات والأفكار التي نزاولها أو نحملها في حياتنا اليومية. وتظل لدينا في جميع الأحوال القدرة على التغيير والتعديل على الصعيدين الفردي والجماعي. ويعني ذلك أننا لم نفقد بعد سيطرتنا على المستقبل. وعلى الصعيد العالمي، فإن الدول المفردة قد فقدت جانباً من القوة التي كانت تتمتع بها في الماضي، وقلَّ نفوذها في وضع السياسات الاقتصادية. غير أن الحكومات مازالت تحتفظ رغم ذلك بقدر كبير من السلطة والنفوذ، كما أن تضافر الجهود التعاونية بين الدول لا بد أن يزيد من مستوى السيطرة والتوجيه على هذا "العالم المنفلت".<sup>(1)</sup>

يرى جيدنز أننا نعيش في عالم "ما بعد الحداثة" بل إننا نتحرك الآن إلى مرحلة يمكن أن نسميها "الحداثة المتأخرة" التي تعولمت فيها التقاليد والعادات. لقد بدأ المجتمع الصناعي القديم بالإنذار مفسحاً الطريق ليحل محله "مجتمع المخاطرة" وما يطلق عليه منظرو ما بعد الحداثة مصطلح "عالم الفوضى" إنما يمثل غياب أنماط الحياة المستقرة ومعايير الإرشادية غير أن علينا، كما يرى جيدنز أن نضيف مفهوم الثقة إلى جانب المخاطر. وهي الآمال التي نعقدها على الأفراد والمؤسسات في مجتمعاتنا الحديثة. وقد أخذ عنصر الثقة بالإنذار مع جملة التحولات المتسارعة في مجتمعاتنا المحلية وتزايد مظاهر العولمة في حياتنا المعاصرة.

<sup>1</sup> - انتوني جيدنز، علم الاجتماع، ترجمة، فايز الصبيغ، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، مؤسسة ترجمان، ط.4، 2005، ص. 731.

كما يشير أيضاً المصطلح (الانعكاسية) إلى استخدام تنظيم وتحديد ماهية النشاط حيث تتعلق بعالم من النشاط يكون فيه المراقبون الاجتماعيون هم أنفسهم مراقبين اجتماعياً، وقد أصبحت الانعكاسية الآن كوكبية النطاق في الواقع. ويرد جيدنز في إجابة عن سؤال ماذا تعني الانعكاسية (Reflexivity)؟ "أنه مصطلح علمي اجتماعي للدلالة على شيء بسيط. نحن نعتمد الآن في بناء حياتنا على استخدام المعلومات استخداماً نشطاً. ومن ثم فإنه كلما توارى التقليد زادت قابليتنا لتلقي المعلومات. وأكثر هذه المعلومات هي منتج جديد للعلم والتقانة. ونعتمد عليها لكي نقرر ماذا نفعل؟ وكيف نعيش؟ وكيف نكون؟ بل ومن له أن يكون؟ هذا هو معنى الانعكاسية الآنية. وطبيعي أن يعيش المرء في عالم هذا حاله يعني أنه يعيش في بيئة مشبعة معلوماتياً. وهكذا فالانعكاسية الآنية جهد فردي ومجمعي متصل ومتغير للتلازم، كما يقول جيدنز، مع حدود وتناقضات عملية النظام الحديث التي هي عملية مطردة ومتغيرة في الزمان والمكان. ولا تعني الانعكاسية مجرد انعكاس، بل مواجهة ذاتية ناشئة عن ديناميات التحديث. إنها، في آن واحد، فعل نشط من الذات يولد تغيرات في الواقع والمعلومات، وهو أيضاً نتيجة متحددة متولدة عن ظروف المجتمع الحديث وما فيه من فيض دائم ومتجدد للمعلومات هي وليدة الفعل النشط من الذات/المجتمع لتعود وتتلقاها الذات جديدة وكان هناك دائماً تغذية جدلية، متبادلة. (1)

لكن يجب أن نفرق بين ما أسماه أنتوني جيدنز بالفعل المنعكس والاستجابة الآنية. ففي إطار نموذج الفعل المتدرج الذي خطط له في ارتباطه بالمعرفة والأفعال العقلانية والمقصودة وغير المقصودة، ودافعية الفعل والقصد أو غرض السلوك الروتيني، فإن

<sup>1</sup> - أنتوني جيدنز، بعيداً عن اليسار واليمين مستقبل السياسات الراديكالية"، ترجمة، شوقي جلال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 286، أكتوبر 2002، ص. 14.

جيدنز يميز بين الدافعية أو الرغبة التي تحض على الفعل، والدافعية كمعنى يرتبط باللاوعي فإدراك الفعل الذي يصدر عن الفاعلين جعله يشدد على ما يسمى باستطراد الوعي الممارس والتمثيلات المعرفية والإدراكية التي تلعب فيها عمليات انتاج الفعل واعدة انتاجه دوراً محورياً، ذلك الذي يرتبط بالقدرة والمعرفة. (1)

من وجهة نظر جيدنز فإن الارتباط بين التمثيل المعرفي والادراكي وبين الفعل يجعلنا نقف على ما إذا كان الفاعلون يستطيعون تفسير نشاطاتهم الروتينية التي تمارسها ذواتهم بطريقة مألوفة، على اعتبار أن الوعي الممارس ينبئ دائماً عن الادراك الظاهر والضمني، الذي به يتم صك القواعد الروتينية للسلوك. إن جيدنز في هذا السياق، في الوقت الذي يركز فيه على الادراك وما يتمخض عن الفاعل وفهمه لأفعاله، فإنه يشير إلى ضرورة عدم النظر وحسب إلى ما هو مقصود، ذلك الذي يلعب دوراً غير متكرر في عمليات انتاج الأفعال في إطار ما أسماه "بالبناء المزدوج" الذي يركز فيه أيضاً على ما هو داخلي، إذ تلعب الرغبات والبواعث أو المشتقات السيكولوجية دوراً واضحاً في تشكيل ليس فقط طبيعة الشخصية على حساب ما يراه السيكولوجيين، وإنما أيضاً في تحديد احتياجاتهم ومقاصدهم وتوجهاتهم.

وبالانتقال إلى المفهوم الآخر المرتبط بالانعكاسية الذي قدمه جيدنز أقصد تحديداً "الاستجابة الآنية" فإنه على حسب تصوره ".... تشير إلى استخدام المعلومات المتوافرة عن شروط وظروف النشاط كوسيلة منظمة لإعادة تنظيم وتحديد ماهية هذا النشاط...." (2)

<sup>1</sup> - شحاتة صيام، النظرية الاجتماعية من المرحلة الكلاسيكية إلى ما بعد الحداثة، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2009، ص. 284.

<sup>2</sup> - نفس المرجع، ص. 285.

وحسب ما تقدم، فإن المرء اليوم حسب جيدنز يعيش في سياق التدفق المعلوماتي الذي فعلته العولمة، فإن وجودنا الاجتماعي الذي يشهد على شيوع المعلومات وتشبع المجتمعات بها، يشهد ما يسمى "بالاستجابة الآنية" التي ما هي إلا جهد فردي مجتمعي متصل ومتغير في الزمان والمكان. والأمر يتبقى أنها ليست مجرد انعكاساً فقط، إنما في الواقع هي فعل نشط من الذات يخلق ديمومة للمعلومات، ومن ثم تأثير واضح على مختلف الصعد في داخل المجتمعات الإنسانية.... فالفيض الدائم للمعلومات والتجدد في الوقت عينه، لا يعني أن الفرد هو صانعها وحسب، بل هو أيضاً متلقيها، ذلك الجدل الذي من خلاله يتم تجدد وتغير وتحديث الذات والمجتمع في آن.

## الفصل الرابع: بيتر برغر وتوماس لوكمان البناء الاجتماعي والواقع

## الفصل الرابع:

### بيتر برغر وتوماس لوكمان: البناء الاجتماعي والواقع.

البناء الاجتماعي للواقع، موضوع يعد مرجعاً أساسياً في علم الاجتماع الأمريكي المعاصر حيث صدر كتاب بهذا العنوان من طرف برغر ولوكمان، عام 1966. وتقود سوسيولوجية هذان المفكران بالتأكيد إلى إستيمولوجية خارجية (تحديد معرفة الواقع الموضوعي بعوامل خارجية) لا تؤدي إلى وضع مثالي (العالم الموضوعي ليس إلا تقديم الموضوعات). لكن هذه الموضوعية كما بينه كل من برغر ولوكمان، ليست محايدة بل لها تداعيات على طبيعة النظام الاجتماعي، وبالتالي، يتم ادراج أي شكل من أشكال جعل المعرفة الاجتماعية موضوعية في الروابط الاجتماعية التي يشارك فيها عالم الاجتماع. ومنه فإن عالم الاجتماع لا يمكنه استخلاص نفسه من الواقع الذي يحدده، ولا يمكنه أن يدعي أن هذا الواقع مطلق وأن عليه دائماً أن يأخذ في الاعتبار أن وصفه للواقع يضفي الشرعية على حقيقة معينة وعلى مجموعة من الممارسات الاجتماعية. فذلك المؤلف المشترك بين المفكرين الإثنين يمثل إطار مرجعي لدراسة البناءات الاجتماعية، وفهم وتحليل الظواهر الاجتماعية ومجموعة الأفعال والأدوار، والسلوكيات التي توجد بين الأفراد في المجتمعات الحديثة.

حيث يعمل برغر ولوكمان على توضيح الصورة حول عملية التشكيل الاجتماعي، واعتبارها كعملية دياكتية مستمرة بين الأفراد لإيجادها عن طريق أفعالهم وتفاعلاتهم، وخلق واقع مشترك يتكون من خبرتهم عن الحقائق الموضوعية أو الواقع الموضوعي objective reality، الذي يرتبط بالنظام الاجتماعي أو العالم النظامي الذي يعتبر نتاجاً للإنسانية. إلى جانب المعاني الذاتية أو الواقع الذاتي، subjective reality،

الذي ينعكس من خلال المعنى الداخلي الذي يدركه الأفراد، وهذا ما أشار إليه برغر ضمن دراسته حول العرش المقدس the sacred conopy، مناقشته لأفكار متعددة ترتبط بالواقع سواء أكان ذاتياً أو موضوعياً، وكيفية تكوين أو ظهور هذا الواقع حسب أنماط معينة من المواقف والعمليات الاجتماعية، كما تعتبر أنماط الواقع أساسية لاستمرار النظام ككل. (1)

الأمر الذي يتطلب البحث في الطريقة التي يتشكل بها هذا الواقع، من أجل المزيد من الفهم الحقيقي والكافي للواقع ككيان مستقل عن المجتمع، أو بعبارة أخرى، كيف تصبح المعاني الذاتية إدراكاً موضوعياً للحقيقة. (2) وفي هذا الشأن يرى برغر أن تشييء العالم الاجتماعي يمر عبر ثلاث مراحل أساسية في العملية الديالكتيكية وهي: التشييء، والذي يعني أن الأفراد يخلقون المجتمع ويبتدعون، والموضوعة objectivation، وتعني بأن المجتمع يشمل واقعاً موضوعياً له نتائج بالنسبة للفرد، لأنه يعود بالتأثير على مبتدعه، والاستدماج ويمثل نوعاً من التنشئة الاجتماعية التي يتم بواسطتها ضمان شرعية النظام المؤسسي الذي يضمن وجود استمرارية عملية التشكيل الاجتماعي، حيث يظهر هذا النوع من التنشئة الاجتماعية عن طرثوق وجود درجة عالية من التساوق بين الواقع الموضوعي والذاتي، وبين الهوية الموضوعية والذاتية، موازية بذلك عملية التنشئة الاجتماعية بالنسبة لبارسونز، والتي يقوم فيها الأفراد بالاستدماج، أي يجعلوا خاصتهم الواقع الاجتماعي الموضع، مع نتيجة أن كل واحد تقريباً يمثل ما كان يسعى أن يكون عليه. (3)

<sup>1</sup> - عبد الله محمد عبد الرحمن، النظرية في علم الاجتماع - النظرية السوسيولوجية المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، الأزارطة الإسكندرية، 2003، ص. 233 - 234.

<sup>2</sup> - بيتر برغر وتوماس لوكمان، البنية الاجتماعية للواقع - دراسة في علم اجتماع المعرفة، ترجمة، أبوبكر أحمد باقادر، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن،

<sup>3</sup> - ورث والس وألسون وولف، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع (تمدد أفاق النظرية الكلاسيكية)، مرجع سابق ص. 465 - 467.

وعليه يرى برغر ولوكمان أن عالم الاجتماع لما يدرس الواقع والمعرفة يجب ألا يدخل في اعتبارات حول ما هو حقيقي أو ما هو غير حقيقي، بل يجب عليه وبكل تواضع أن يكتفي بملاحظة أنه في بعض المجتمعات، هناك أمور معروفة وأخرى توصف بالحقيقية من قبل الفاعلين. وعلاوة على ذلك، في معظم الأحيان، لا يفكر الأفراد حقاً فيما هو حقيقي أو ما هو غير حقيقي. لذلك حاول برغر ولوكمان جعل مفهوم الواقع سوسولوجياً وذلك من خلال إعادة دمج في البعد الذي يشكل فيه أو يبنى فيه العالم الاجتماعي.

إن الفكرة الأساسية لهذه النظرية تقوم على أن معرفة الواقع شيء مستحيل بسبب صفة التغير الناتجة عن خضوعه لتأثيرات خارجية أو داخلية. وبالتالي فإن الإنطلاق من مقولات توصل إليها الخطاب العلمي سوف يعني في هذا المجال خلق عالم صنعته هذه المقولات وليس لها أي أثر على الواقع. فلكون أن الأسس الاجتماعية، بالنسبة لهذه النظرية، تتكون من مجموعة من النماذج والأنماط المختلفة التي يعيشها العالم، فهي إذن بالضرورة متنوعة.<sup>(1)</sup> فبالنسبة لبيتر برغر وتوماس لوكمان، فإن المفاهيم تأخذ لها صورتها الحقيقية عندما يمنح الأفراد معنى لتفاعلهم والتي تصبح بفضل التعود على استخدامها كشيء حقيقي. وتعرف هذه المرحلة بمرحلة تشكيل النمط الذي لا يعني محاولة الأفراد التعديل من واقعهم بل إن هذا الأخير يعبر بحد ذاته عن إحساسهم المشترك به وانطباعاتهم عنه. بعبارة أخرى أن هذه الانطباعات وهذه الأحاسيس ستؤطر بالمواقف المتفاعلة. ويقود هذا التشكيل إلى التمثيل الاجتماعي الذي يأخذ له صفة المؤسسات والتي يمكن ملاحظتها عندما نركز البحث في عناصر تكوين الشعب

<sup>1</sup> - عبد الوهاب محمد خالد، العلوم السياسية والعلاقات الدولية، الجنادرية للنشر والتوزيع، ط.1، 2015، ص. 33.

والدولة والأمة والعائلة والمدرسة والمشروع الاقتصادي وعندما يتقاسم الأفراد قيم مصادر هذا التمثيل الاجتماعي مثل قيم الحرية والمساواة والشرعية كشيء "معاش" فيصبح هذا التمثيل حقيقة واقعية. بعبارة أخرى أن الذاتية الفردية - ما يشعر فيه الفرد - ستكون المعيار الفاصل لمعرفة وتفسير واقعية النشاطات الاجتماعية والأفعال الاجتماعية، لأن هذه الذاتية ستعكس ما تم قبوله من قبل الأفراد من معتقدات وليس للمنهج الموضوعي معنى في صياغتها. ولكون أن دراسة الفردية كواقع موضوعي لا يمكن بحثها بسبب طبيعتها الذاتية نفسها، فمن غير الممكن البحث في مجالها لكون أن هناك الكثير من المعاني تبقى مواضيعها بعيدة عن تعبيرها البسيط كتمثيل أو كرموز. (1)

وبناءً على ما سبق يمكن القول إن نظرية البناء الاجتماعي للواقع تبين انخراط الأفراد في الاستدماج، إذ يتكيفون مع توقعات المؤسسات الاجتماعية الموجودة، ويعيدون ابتداءً وضع المؤسسة الاجتماعية في وضع التشبيء، ولما تنشأ تصبح موضوعة، ولما تتموضع تؤثر على الفرد باعتباره كياناً مستمجاً وفي هذا الصدد يوضح برغر ولوكمان، أن المجتمع نتاج إنساني "التشبيء"، والمجتمع واقع موضوعي (الموضوع)، والمجتمع نتاج اجتماعي (الاستدماج). إذاً يحاول المفكران الجمع بين التحليلين الكلي والفردية. ويريان أن الحياة الاجتماعية تقوم على المعاني المسلم بها والمستمدة من الفطرة، إلا أن اهتمامهما منصب أكثر على المعاني العليا الظاهرة التي تشترك فيها الجماعة والتي تتطور من المعاني المستمدة من الفطرة. ويذهبان إلى القول بأن البشر يمتلكون عدداً محدوداً من الغرائز، وإنما هو ناتج عن البيئة الاجتماعية التي يخلقها هؤلاء البشر بأنفسهم. وفي هذه البيئة الاجتماعية تمثل القيم والمعاني العليا، وهي

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 34.

أساساً قيم ومعان دينية يتقاسمها الجميع، وهي البؤرة الحقيقية للتنظيم الاجتماعي. ويتمثل اهتمام برغر ولوكمان في بيان السبل التي تتطور بها هذه المعاني ((وتتجسد)) في المؤسسات الاجتماعية، والتي تجرى تنشئة أعضاء المجتمع الجدد بناء عليها. إجمالاً، هذا الموقف يتركنا مع منظور يشابه الوظيفية البنائية. فالأفكار والقيم الثقافية والمعايير ينظر إليها على أنها بؤرة للتنظيم الاجتماعي الذي تجري تنشئة أعضاء المجتمع الجدد فيه. إلا أن برغر ولوكمان ينفقان وقتاً أطول وهما يتحدثان عن تطور تلك القيم نتيجة لتفاعل الأفراد الاجتماعي،<sup>(1)</sup> رغم أن الصورة النهائية للتنظيم الاجتماعي واحدة بين المنظورين. والفرق الأساسي هو أن البنائية الوظيفية لديها الكثير مما تتحدث عنه بخصوص التنظيمات المؤسسية، في حين أن هذه المسألة تميل إلى أن تكون مسألة ثانوية لبرغر ولوكمان. ومن البساطة بمكان وضع هذا المنظور ضمن إطار الوظيفية البنائية، باعتباره أحد تفرعاتها التي تهتم بالنسق الثقافي، وهو ما يعتبره بارسونز واحداً من أربعة أنساق، وإن كان أهمها.<sup>(2)</sup>

---

<sup>1</sup> - إيان كريب، مرجع سابق، ص. 137.

<sup>2</sup> - فس المرجع، ص. 138.

## الفصل الخامس: التفاعلية الرمزية

1 - ارفنغ قوفمان

2 - آرلي رسل هوشيلد

3 - باتريشيا هل كولينز

## الفصل الخامس:

### التفاعلية الرمزية.

هي واحدة من النظريات الاجتماعية التي تعتمد في تحليلها للأنساق الاجتماعية ابتداء من الوحدات الصغرى (Micro)، منطلقة منها لفهم الوحدات الكبرى. وظهرت التفاعلية الرمزية كنتيجة لعدة جذور فكرية وبخاصة اسهامات ماكس فيبر والمدرسة الألمانية، لكن جذورها الأساسي يرجع للفلسفة البراجماتية في الولايات المتحدة الأمريكية التي اهتمت بالعلاقة بين العقل والجسد. وقد ظهرت التفاعلية بشكل رئيسي في جامعة شيكاغو بين الحربين.

وفي علم الاجتماع هناك ثلاثة رواد للتفاعلية الرمزية إذ أن كل رائد من هؤلاء الرواد أضاف شيئاً متميزاً نتج عنه تنمية التفاعلية الرمزية في مجال معين. أما رواد التفاعلية الرمزية فهم جورج هربرت ميد ( 1863 - 1931 ) وهربرت بلومر وأخيراً فيكتور تيرنر.

ففي مقال لهيربرت بلومر سنة 1937 تحت عنوان علم النفس الاجتماعي صك تعبير (التفاعلية الرمزية)، وفي مقال لاحق له سنة 1962 بعنوان (المجتمع والتفاعل الرمزي) يؤكد بلومر بأن ميد أكثر من أي من الآخرين وضع أساس هذا الاتجاه. وفي كتابه التفاعلية الرمزية Symbolic interactionism يعرف هربرت بلومر التفاعل الرمزي بأنه: خاصية مميزة وفريدة للتفاعل الذي يقع بين الناس، وما يجعل هذا التفاعل

فريداً هو أن الناس يفسرون ويؤولون أفعال بعضهم بدلاً من الاستجابة المجردة لها، إن استجاباتهم لا تصنع مباشرة وبدلاً من ذلك تستند إلى المعنى الذي يلصقونه بأفعالهم.<sup>(1)</sup>

ويوضح بلومر أن المرتكزات المعرفية الأساسية للتفاعلية الرمزية تتمثل في أن البشر يتصرفون حيال الأشياء على أساس ما تعنيه بالنسبة لهم، أي من خلال المعاني المتصلة بها، وهذه المعاني هي نتاج للتفاعل الاجتماعي في المجتمع الانساني، وهي تحور وتعديل ويتم تداولها عبر عملية تأويل ويستخدمها كل فرد في تعامله مع الإشارات التي يواجهها.<sup>(2)</sup>

ومن أشهر ممثلي التفاعلية الرمزية نذكر:

### أولاً - ارفنج قوفمان Erving Goffman (1922-1982).

وجه قوفمان اهتمامه لتطوير مدخل التفاعلية الرمزية لتحليل الأنساق الاجتماعية، مؤكداً على أن التفاعل - وخاصة النمط المعياري والأخلاقي - ما هو إلا الانطباع الذهني الإرادي الذي يتم في نطاق المواجهة، كما أن المعلومات تسهم في تعريف الموقف، وتوضيح توقعات الدور. ولقد تأثر قوفمان كثيراً بأفكار ميد، مما جعله يركز على الذات بشكل كبير في كتابه "تقديم الذات في الحياة اليومية"، والذي شكل الكثير من أعماله اللاحقة، ويعد من المفكرين البارزين الذين ارتبطوا بمدرسة شيكاغو الأصلية، وبانضمامه إلى بلومر في جامعة بركلي، استطاع تأسيس ما يشبه مركزاً للتفاعلية الرمزية، إلا أن هذا المركز لم يضارع مدرسة شيكاغو في أهميتها.

<sup>1</sup> - محمد عبد الكريم الحوراني، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع (التوازن التفاضلي صيغة توليفية بين الوظيفية والصراع)، مرجع سابق، ص. 28.

<sup>2</sup> - نفس المرجع، ص. 28.

لقد بنى قوفمان لنفسه مكاناً قوياً ومتميزاً في نظرية علم الاجتماع المعاصر، حيث نشر خلال هذه الفترة ما بين الخمسينات والسبعينات من القرن الماضي سلسلة من الكتب والمقالات التي كانت المخاض لميلاد التحليل المسرحي كشكل مختلف من أشكال التفاعلية الرمزية، وتتلخص فكرته حول أن هناك تشابهاً كبيراً بين الأداء المسرحي وأنماط الدور الذي نقوم به جميعاً في أفعالنا وتفاعلاتنا اليومية.

وبالتالي اهتمت نظريته الاجتماعية بالفرد وموقفه من الآخرين، وكيفية تقديم نفسه وأفعاله لهم من خلال الحياة اليومية، والطريقة التي يمكن من خلالها التحكم بانطباعات الآخرين عنه أثناء التفاعل الاجتماعي، وهذه المبادئ هي نوع من التأليف المسرحي حيث الأداء لمواجهة الآخرين والتأثير عليهم، فالتحليل المسرحي يتناغم مع جذوره التفاعلية الرمزية حيث يركز على الفاعلين والفعل والتفاعل، واستناداً إلى التفاعلية الرمزية وجد قوفمان في المسرح استعارة رائعة لتسليط الضوء على العمليات الاجتماعية الصغرى.

يرى قوفمان أن التعابير الجسدية والإيماءات ونوعية الفعل تعتبر مؤشرات أصدق للمعنى ووعي الانسان به، تجعله يحاول تدبير تعابير الحركة وأفعاله بالشكل الذي يُظهر أحسن مظهر محاولاً إخفاء الأوجه السلبية مما يجعل التفاعل الاجتماعي نوعاً من لعبة الانطباعات المرسل والمستقبل، طرف يحاول اكتشاف الحقيقة، وطرف يحاول إخفاءها، الأمر الذي يساعد في استمرار العملية الاجتماعية، بحيث كل طرف من أطراف التفاعل يحاول حماية صورته وتجنب الفضائح ويقدم أفضل صورة لذاته كمحاولة دفاعية. ويحاول كل انسان في عملية التفاعل وضع واجهة تشمل الرموز والاشارات التي تتناسب مع مكانة الدور كالملبس ونمط اللغة.

وهكذا كان انطلاق قوفمان من مفهوم الذات ليعالج الصلة بينها وبين تنظيم المجتمع، وبالتسليم بوجهة نظر ميد التي مؤداها أن الذات كيان اجتماعي وجد خلال عملية التفاعل الاجتماعي، وأن الفرد لا يعي فحسب "الآخر المعمم" وإنما هو يستدمج القيم والاتجاهات السائدة في وسطه الاجتماعي، أو هو يتعلم هذه القيم والاتجاهات ويدخلها ضمن تكوينه النفسي بطريقة تجعله قادراً على تطوير اتجاهاته الاجتماعية تلقائياً، وتنمية خبراته ومشاعره وإتيان أفعال اجتماعية ملائمة. وينظر إلى أن الحياة اليومية أشبه بالحياة على المسرح، فالممثل على خشبة المسرح يحاول تقديم ذاته إلى الأفراد على أساس الدور الذي يقوم بتمثيله في المسرحية، فيلجأ إلى حيل عديدة لكي يقتنع الجمهور بالفعل بقدرته على تقمص الشخصية التي يقوم بتمثيلها فإذا كان مثلاً يقوم بتمثيل دور رجل الشرطة، فإن عليه أن يرتدي زي الشرطة وأن يجعل بسماته ونبرات صوته وحركاته متطابقة قدر المستطاع مع ما يتسم به رجال الشرطة، ويعتقد قوفمان أن هذا هو بالفعل ما يحدث في حياتنا اليومية فنحن نقنع الآخرين بطبيعة ذواتنا وماهية شخصيتنا ونلجأ في سبيل ذلك أيضاً إلى عدد من الترتيبات كالمسكن الذي يسكن فيه، الزي الذي نرتديه، طريقة الحديث، أسلوب المعاملة هي كلها تعبيرات ومظاهر تدل على الأدوار والسمات الشخصية والمكانة الاجتماعية والاتجاهات.

لذلك نجد أن "قوفمان" من حيث الموقف النظري يتموقع بين منظور مدرسة شيكاغو ونظرية الدور، إلا أنه كثيراً ما يصنف منظور قوفمان بالمنظور المسرحي، وهذا المصطلح يستخدمه هو بنفسه، فالأدوار (أي التوقعات التي تكون لدى الآخرين عن سلوكنا في ظروف معينة) هي بمنزلة نصوص نقوم بتمثيلها، لذا فهو مهتم ببيان الأساليب التي نسلکها لأداء أدوارنا، وهكذا كانت طالبات الكليات الأمريكية في

الخمسينات يتغابن عمداً للتأثير في زملائهن الطلبة، وكان سكان "جزر شتلند" وهي الجزر التي أجرى فيها غوفمان معظم دراساته الميدانية لأشهر كتبه، وهو "تقديم النفس في الحياة اليومية" كانوا يتركون واجهات بيوتهم تتآكل مخافة أن يعتقد الملاك أن ساكنيها قادرين على دفع إيجار أعلى، وينظر غوفمان بهذا الشكل إلى جميع أوجه الحياة من أكثرها خصوصية إلى أكثر جوانبها ظهوراً وعلنية، فالمرأة التي تحس أنها أخطأت في حق زوجها، تقوم عادة بمحاولة استرضائه ما أمكن، بإظهارها وداً زائداً غير معهود، وعملية التصنع أو "التحكم في الانطباعات" Impression

Management تقع باستمرار في حياتنا، كما لو كنا جميعاً نعمل مندوبي إعلانات لذواتنا، ونحن نستخدم محيطنا المادي مجالاً للتمثيل تاركين مساحات للخلوة وراء الكواليس" نلوذ إليها طلباً للراحة من عناء التمثيل (كما في الحمام مثلاً).<sup>(1)</sup>

## ثانياً – أرلي رسل هوشيلد: Arlie Russel Hochschild.

ورغم ما قدمه أرفنغ قوفمان من اسهام في التفاعلية الرمزية إلا أنه مقارنة بأرلي رسل هوشيلد يعتبر اسهاماً محتشماً. وتمثل اسهامات هوشيلد (من مواليد 1940) في التفاعلية الرمزية ما يسمى بسوسيولوجيا العواطف. حيث ركزت على ربط العواطف بالتفاعل الاجتماعي، أي أن الفعل الاجتماعي في سياقه التفاعلي مرتبط بالمشاعر والأحاسيس والعواطف التي تحدد وتضفي عليه معان ذاتية، كما أن العواطف ليست فقط ذات دوافع عضوية وإنما مردها أيضاً إلى الأبعاد الاجتماعية، حيث أكد أن التفاعل بين الأفراد هو الذي ينشئ العواطف ويحرك المشاعر والأحاسيس صوب الفعل الاجتماعي.

<sup>1</sup> - إيان كريب، مرجع سابق، ص. 122.

وتعتبر أرلي رسل هوشيلد في الحقيقة مؤسسة لحقل فرعي في علم الاجتماع، وهو علم اجتماع العواطف، ومن أهم مؤلفاتها The managed heart القلب المروض، وof human feelingCommercialisationالاتجار بالمشاعر الانسانية. وتوضح هوشيلد أن "فكرة العواطف والمشاعر سار بجدية مع استمرار تناول خبرات المرأة والتصورات العامة لتلك الخبرة". (1)

وانطلقت هوشيلد من عدد من المنظرين مثل ديوي وقوفمان وفرويد. وتشير إلى أن كل من قوفمان وفرويد قدما وجهة نظر محدودة للعواطف. فلقد تخصص قوفمان في دراسة الارتباك والخجل، أما فرويد فتخصص في تحليل القلق. بينما تشمل نظرية هوشيلد المدى الكلي للعواطف، فهي تتضمن الحزن، والكآبة والإحباط، والغضب، والخوف، والخزي، والعار، والذنب، والألم، والحسد، والغيرة والحب، والشفقة، والإرتباك، والخجل، والقلق.

وكتبت هوشيلد: "أعتقد أننا نستطيع تطبيق منظور علم اجتماع العواطف على قضايا اليوم المختلفة، وذلك كمحاولة لدفع وإبراز الحقول النظرية الجديدة في علم الاجتماع، ولتوضيح القصة الانسانية غير الجديرة بالسياسة الاجتماعية". (2)

وبالرغم من أهمية ما قدمته من اسهام في مجال علم الاجتماع الجزئي إلا أن علماء الاجتماع الذين يهتمون بالبحث الكمي الذي يفضلونه يميلون إلى التقليل من قيمة عمل هوشيلد.

<sup>1</sup> - رث والس، مرجع سابق، ص. 404.

<sup>2</sup> - فس المرجع، ص. 408.

## ثالثاً- باتريشيا هل كولينز Patricia Hill Collins.

تشتهر بكتابتها الموسوم "الفكر النسوي الأسود: المعرفة والوعي وسياسات التمكين"، وكتابتها الأكثر حداثة يحمل عنوان: "السياسات الجنسية السوداء: الأمريكان الأفريقيين، والجندر، والعرقية الجديدة." وتدفع باتريشيا هل كولينز باتجاه إعادة صياغة مفاهيمية للنظرية الاجتماعية التي يبدأ التحليل فيها من رؤى مميزة للجماعات الغريبة، والتي تكون فيها المفاهيم التقليدية للعرق، والطبقة، والنوع الاجتماعي (جندر) تشكلت وتغيرت بتضمين الخبرات الواقعية وتعريفات الجماعات الخاضعة.

في مرحلة نموها كانت كولينز محاطة بأطفال يشبهونها - بنات وأبناء العمال الكادحين، والعاملين في المنازل، وسكريترات، وعمال مصانع - والذين عملت عائلاتهم على تأكيد ذاتها، فقدمت كولينز مثلاً على هذا التأكيد في مناسبة أدائها في اللعب، فلما كانت في الخامسة من عمرها تقول على حد تعبيرها: " إن كلماتهم وتهنئاتهم ومعانقاتهم جعلتني أشعر بأنني كنت مهمة، وهذا ما كنت أفكر به، وأشعر به، وأني أنجزت."

وفيما بعد، أصبحت واحدة من بين قلة أو وحدها الأفريقية الأمريكية من نساء الطبقة العاملة في مدارسها، ومجتمعاتها المحلية، وأماكن العمل. إن الهجوم اليومي الذي خبرته خلق لديها شعوراً بأنها بضالة منزلتها في عالم لم تكن فيه فقط مختلفة، لكنها كانت تعتبر أقل أهمية، وبالتالي أصبحت تمارس الصمت وكانت عملياً مجبرة على الصمت.<sup>(1)</sup> وعلى هذا المنوال نلاحظ في كتابها الفكر النسوي الأسود محاولة للامساك بالارتباطات المتداخلة للعرق، والطبقة الاجتماعية والجندر، بالاستناد إلى

<sup>1</sup> - فس المرجع، ص. 412.

خبرات المرأة الافريقية الأمريكية المستقاة من الأدب الذي كتب عن المرأة بكتابتها عن ذاتها.

وتؤكد كولينز، بأن موضوعها جاء من أجل تطوير إطار معرفي يمكن أن يستخدم في تقييم الفكر النسوي الأسود الموجود، ولتوضيح بعض الافتراضات الأساسية التي تعيق تطور الفكر النسوي الأسود. إن تعريف المعرفة يتضمن دراسة طبيعة وأساس المعرفة، خصوصاً بالإشارة إلى محدداتها ومصادقيتها المتضمنة في الأبعاد الأربعة لمعرفة كولينز النسوية المركزة افريقياً وهي: (1) -الخبرة الواقعية كمعيار للمعنى. (2) - استخدام الحوار في تقييم الادعاءات المعرفية. (3) -أخلاق الرعاية والاهتمام. (4) - أخلاق المسؤولية الشخصية. (1)

وتتعلق كولينز، مثل قوفمان، من مصادر متنوعة، بما في ذلك السير الذاتية، والروايات لتوضيح مفاهيمها، مثلاً: تستخدم الطقوس الدينية للكنيسة السوداء التقليدية لإيضاح الطبيعة التفاعلية للأبعاد الأربعة جميعها، وتوثق انتشار استخدام نموذج خطاب التلاوة والاستجابة في تلك الطقوس الدينية كإيضاح لأهمية الحوار، وتصفه هكذا: "يتألف من تفاعل لفظي وغير لفظي عفوي بين المتحدث والمستمع، والذي تقطع فيه جميع مقولات المتحدث، أو التلاوات بتعبيرات أو استجابات من قبل المستمع. إن هذا الخطاب الأسود يجتاح الثقافة الافريقية الأمريكية. إن المطلب الأساسي لهذه الشبكة التفاعلية هو المشاركة الفعالة من قبل جميع الأفراد، ومن أجل اختبار الأفكار والتأكد من مصداقيتها، ينبغي على كل واحد في الجماعة أن يشارك، وإن رفض

<sup>1</sup> - فس المرجع، ص. 413.

المشاركة، خاصة إذا كان المرء غير موافق على ما قيل، ترى أنها مخادعة واحتيالي.<sup>(1)</sup>

إن المفهوم الأساسي في عمل باتريسيا هل كولينز والذي يعد مركزياً بالنسبة للمنظور التفاعلي هو تعريف الذات للمرأة الإفريقية-الأمريكية وتتضمن عناصر تعريف الذات هذا، الثقة بالذات، تقدير الذات، والاستقلال، تربط كولينز انبثاق تعريف الذات برفضهن توجيه صور المرأة الإفريقية الأمريكية التي تأصلت خلال حقبة العبودية: أمهات مربيات لأطفال البيض، وتبين كولينز بأن الصور المنضبطة والموجهة للأثوية السوداء صممت لإظهار أن، العرق والجنس، والفقير، جميعها طبيعية، وعادية وجزء لا يمكن تجنبه في الحياة اليومية... إن مثل هذه الصور... لا تبقى المرأة السوداء خاضعة ومظلومة فقط، لكنها أساسية في الحفاظ على الأنساق المتشابكة للظلم العرقي، والطبقي، والنوع الاجتماعي.

---

<sup>1</sup> - فس المرجع، ص. 414.

## الفصل السادس: علم اجتماع العلوم

1 - نظرة تاريخية موجزة على علم اجتماع العلوم

أ - ماكس شيلر

ب - فلوريان زنانبيكي

ج - روبرت ميرتون

2 - تنوع المقاربات السوسيولوجية للعلوم (التجديد)

أ - توماس كون

ب - تنوع مواضع التحليل السوسيولوجي

3 - تفسير محتوى طبيعة المعرفة العلمية سوسيولوجياً

4 - العلم بصفته بناء

5 - منظورات سوسيولوجية حول أسس الجماعة العلمية.

## الفصل السادس:

### علم اجتماع العلوم.

علم اجتماع العلوم هو أحد العلوم البيئية الناشئة حديثاً بسبب الحاجة إلى المزيد من التخصص، فهو يقع في نقطة التقاء أربعة علوم: علم الاجتماع العام، العلوم الطبيعية وفلسفة العلوم وتاريخ العلوم. فعلم اجتماع العلوم هو باختصار العلم الذي يدرس العلوم الطبيعية بشكل أساسي وبقية العلوم الأخرى انطلاقاً من اعتبارات اجتماعية. وعليه انطلق علم اجتماع العلوم ليجتهد في العلاقة بين نظام المعرفة العلمية والبناء الاجتماعي، وفهم نسق المعرفة انطلاقاً من معطيات مجتمعية وربطه بالبناء الاجتماعي والتاريخ والثقافة ليس بالأمر الجديد، بل نجده في أعمال كوندرسيه وكونت وماركس ودوركايم... وظهر بوضوح في أعمال كارل مانهايم في علم اجتماع المعرفة.

### **أولاً - نظرة تاريخية موجزة على علم اجتماع العلوم.**

نجد جذور سوسيولوجيا العلوم ((الحديثة)) عند روبرت ميرتون ضمناً ابتداء من 1938 ثم أصبحت جلية منذ 1942 لما كتب عن البنية المعيارية للعلوم. وبعد السبعينات شهد علم اجتماع العلوم ثورة حيث أخذت بدراسة البعد المعرفي للعلم من حيث محتويات المعرفة وأثاره الاجتماعية، فما جاء به ميرتون هو فهم العلم باعتباره نشاطاً اجتماعياً. لأن ما كان قبل ذلك من محاولات انطلاقاً من دوركايم وموس هو حول أصل أو تاريخ العلم أو مقارنة العلم سوسيولوجياً، حيث درس الأشكال الأولية للحياة الدينية. وكذلك أعمال بوخارين في العشرينات من القرن الماضي حيث يصرح هذا الأخير: "أن كل علم يجد عملياً أصله في الشروط والحاجات الملازمة للصراع من

أجل الحياة الذي يخصصه الإنسان الاجتماعي في مواجهة الطبيعة.<sup>(1)</sup> ظهر هذا التصور منذ 1931، وهو التاريخ الذي انعقد فيه بالفعل المؤتمر الدولي الثاني حول تاريخ العلوم والذي شارك فيه بوخارين نفسه ببحث تحت عنوان "النظرية والممارسة من وجهة نظر المادية الجدلية"، في هذا البحث جعل بوخارين ثلاث وظائف اجتماعية كبرى: أن يزيد من معرفتنا بالعالم الخارجي، أن يطور طرائق تقنية، وأن يسيطر على كل قوة تعارض التطور البشري.

## 1- ماكس شيلر (1874 - 1928). العلم موضوع لعلم اجتماع المعرفة.

يعتبر ماكس شيلر أول من وضع تصنيفاً علمياً لقضايا علم اجتماع المعرفة، وبالرغم من ذلك يتم تجاهل أعماله السوسيولوجية على أنها تتصف بالغموض، وأنه يغلب العناصر الإبيستيمولوجية على العناصر السوسيولوجية في تحليلاته. ويذهب شيلر إلى ضرورة تقسيم علم الاجتماع المعرفة إلى علم اجتماع مثالي وعلم اجتماع واقعي، يعنى الأول بأنماط التفكير وإنتاج المعرفة ويعنى الثاني بالعلاقات السببية وتأثير العوامل الواقعية على هذه الأنماط والنماذج المعرفية.<sup>(2)</sup>

يذهب ماكس شيلر في تعريفه لعلم اجتماع المعرفة إلى أنه " تحليل للعلاقات الوظيفية المتبادلة والمتداخلة بين العمليات والبناءات الاجتماعية من جانب، وأنماط الحياة الفكرية والعقلية بما فيها نماذج المعرفة من جانب آخر، دونما أولوية أو أسبقية تعزى إلى المجتمع أو العقل".<sup>(3)</sup>

<sup>1</sup> - ميشال دووا، مدخل إلى علم الاجتماع والعلوم والمعارف العلمية، ترجمة، سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008، ص. 31.

<sup>2</sup> - طه نج، علم اجتماع المعرفة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996، ص. 09.

<sup>3</sup> - السيد عبد العاطي السيد، علم اجتماع المعرفة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1998، ص. 137.

يؤكد ماكس شيلر في هذا الإطار العام "أنه لا يوجد أدنى شك في الطابع السوسولوجي لكل معرفة علمية، ولكل أشكال الفكر، والحدس، والمعرفة." وفي كتابه "سوسولوجية العلم والتقنية والاقتصاد" يؤكد على مدى التطابقات الموجودة بين الأشكال التقنية للإنتاج وأشكال المعرفة الملازمة للعلم الوضعي، وكتب شيلر: "إن الأشكال السوسولوجية الأولى التي كانت في أصل العلم الوضعي تتطابق دائماً مع الجماعات الاقتصادية للعمل والتبادل في الثقافات البطريركية المتوسعة."<sup>(1)</sup>

وبالنسبة لشيلر فإن المعارف الإنسانية تنظم في درجات بحسب درجة اصطناعية المعرفة، ويتغير نمط المعرفة السائد في الجماعة بفعل الإختلاط الشعبي، ومن خلال امتزاج اللغة بالثقافة، وتتحدد سرعة تغير أنماط المعرفة من شكل لآخر بحسب درجة اصطناعية المعرفة فكلما زادت هذه الإصطناعية كان تغير المعرفة أسرع.

## 2 - فلوريان زنانبيكي: علم العلم، الأدوار الاجتماعية للمعرفة.

ومن بين المحاولات أيضاً لسوسولوجيا العلوم، نذكر، بولندا، حيث نجد فلوريان زنانبيكي، الذي نشر في مجلة "نوكابولسكا" مقال بعنوان "موضوع ومهمات علم المعرفة"<sup>(2)</sup> وذلك سنة 1932، حيث تناول الدور الاجتماعي للإنسان العالم. فيرى أنه لا بد من دراسة العلاقة بين القيم المعرفية ونتائج البحث، ودراسة التبعية المتبادلة بين تطور التقنيات الأداة وتطور المعارف العلمية. وبالتالي يتضح لنا أن المسألة التي عالجها زنانبيكي هي مسألة العلاقة الوظيفية التي تربط الأدوار الاجتماعية المؤسسة للنشاط العلمي، بالظواهر المعرفية المستمدة من هذا النشاط.

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 36.

<sup>2</sup> - نفس المرجع، ص. 40.

ففي موضوع العلم، فإن المطلوب بحسب زنانبيكي هو دراسة العلاقة بين القيم المعرفية ونتائج البحث، ودراسة التبعية المتبادلة بين تطور التقنيات الأداةية وتطور المعارف العلمية، وبالتحديد أكثر ما يسميه ((التعين الاجتماعي للنشاط المعرفي)).<sup>(1)</sup>

### 3 - روبرت ميرتون، العلم كمؤسسة اجتماعية.

يرجع الفضل لميرتون في تأسيس علم اجتماع العلوم. يقول ميرتون إنه إذا كان مصطلح علم يعيدنا إلى حقائق مختلفة للغاية، فإن واحدة منها فقط يجب أن تستحوذ على انتباه علم الاجتماع: العلم بوصفه مجموع قيم ثقافية تؤثر في النشاطات المعرفية على أنها علمية. وبتعبير آخر فإن العلم، وفق هذا المنظور، لا يمكن تعيينه سوسولوجياً، لا باعتباره مجموع معارف ولا حتى كونه مجموع تقنيات وممارسات بحثية، وإنما أولاً، حسب تعبير ميرتون، بل مؤسسة تقوم على "مجموع قيم ومعايير يلونها نوع من الانفعالات الوجدانية المفترض أنها تمارس تأثيراً اكرهياً على رجل العلم. هذه المعايير يعبر عنها على شكل وصفات وتحريمات وأفضليات وإباحات، وهي مشرعة على أنها قيم مؤسسية.<sup>(2)</sup>

وبعين ميرتون أربعة معايير مثالية يرتبط اجتماعها بفكرة البنية المعيارية للعلم بالذات وهي من الضرورات المؤسسية: "العمومية" أو الكونية أي تقييم المعرفة الجديدة وفق معايير الموضوعية واللاشخصية، وأنه لا يمكن الطعن في المعرفة بسبب العقيدة والدين والجنسية، "الشيوع" أو الاشتراك بمعنى أن للإكتشافات العلمية منفعة مشتركة تهدف إلى تحقيق المنفعة العامة للمجتمع، لذلك فعلى العلماء الابتعاد عن السرية والأنانية وأن

<sup>1</sup> - ميشال دوبوا، مدخل إلى علم اجتماع العلوم، ترجمة، سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط. 1، 2008، ص. 41.

<sup>2</sup> - نفس المرجع، ص. 55.

يشاركوا العلماء الآخرين نتائج أبحاثهم، "النزاهة" أو التقييم العلمي والنزاهة الأدبية حيث تخضع البحوث لتقييم منظم من خلال مقاييس منطقية وتجريبية بعيداً عن كل معتقد شخصي، "الشك المنظم" أو الإبداع يقدم العلماء الاكتشافات التي تطلبها منهم المؤسسات العلمية وفي المقابل تمنح لهم هذه الأخيرة الاعتراف والتقدير.

ومما سبق فإن على العلماء أن يروا أن العلم مؤسسة اجتماعية لها منظومتها المعيارية التي تفرض على العلماء سلطة أخلاقية تتحول فيما بعد إلى أعراف وتقاليد تمنح على أساسها الجوائز والحوافز للعلماء كلما كان إلتزامهم بتلك القواعد أعلى.

وفي خطاب قدمه ميرتون سنة 1957 أمام الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع فصل في علم اجتماع العلوم. وينطلق ميرتون من المسألة المتمثلة بالمشاحنات بين العلماء حول الأسبقية في الاكتشاف العلمي، والمنازعات حول الملكية الفكرية كانت تحصل مراراً لمناسبة تحقيق اكتشافات متزامنة، غير أن هذا التزامن لا يفسر إلا القليل. لقد رفض ميرتون تفسير هذه المنازعات بردها إلى الطبيعة البشرية أو السيكولوجية الفردية بل ردها لتأثير المعايير الاجتماعية.

## ثانياً- تنوع المقاربات السوسيولوجية للعلوم (التجديد) بين 1970 و1980.

في هذه المرحلة بدأت إعادة توجيه الأبحاث في علم اجتماع العلوم، ففي نهاية الستينات ظهر جيل جديد من الباحثين كانوا أوروبيين في البداية ثم التحق بهم الأمريكيون فيما بعد، وبدأ يظهر تنوع في الفهم السوسيولوجي للعلوم، واستند إلى نواة نظرية جديدة.

## 1- توماس كون.

يبرز اسهام توماس كون في عملية تنويع توجهات هذا الفرع، وظهر مؤلف كون الكلاسيكي: "بنية الثورات العلمية"، عام 1962، وتحمس ميرتون لهذا الكتاب حيث أطرى عليه في رسالة بعثها لتوماس كون.

ثم أصدر برنارد باربر دراسة نقدية للكتاب، حيث نوه بأهمية العمل المنجز. "إن الجيل الجديد من مؤرخي العلوم، قد أصبح شبه سوسيولوجي... أقصد بذلك أن التحليلات السوسيولوجية لعملية الاكتشاف العلمي [والتي يقترحها كون] ليست بالجلء النظري الذي كنا نتمناه، كما أنها لا تدخل في حساباتها بعض العوامل الاجتماعية التي تعززها من خلال توسيع حقل تطبيقها. ويعي كون أهمية هذه العوامل التي يصفها "بالخارجية"، إلا أنه عاملها بطريقة ليست تماماً غير مباشرة ولا هي كثيفة كفاية..."<sup>(1)</sup>

لا تكمن أهمية كون في القراءة التي قدمها علماء الاجتماع الأمريكيون بل في القراءة التي اقترحها لاحقاً علماء الاجتماع الأوروبيون أمثال باري بانز أو دافيد بلوز، إذ وجدوا لدى كون خصوصاً مفهوم الباراديغم (Paradigme) الذي هو في قلب تحليله وسيلة لإعادة النظر في الخصوصية المزدوجة لعلم اجتماع العلوم التي أسسها التراث الميرتوني. إن مفهوم الباراديغم يجسد صلة الارتباط بين الأبعاد الاجتماعية والمعرفية التي تباشر عملاً صوب كل عملية اكتشاف علمي، وهو لذلك يستخدم لتبرير اقضاء كل تمييز، حتى التحليل البحث، بين "النسق الاجتماعي للعلم" الذي درسه التراث الميرتوني، وبين محتويات المعرفة العلمية التي كانت متروكة حتى الآن لفلاسفة العلوم. إن هذا المفهوم يفتح الطريق نحو إعادة تعيين وتعريف سوسيولوجية للعلم: إذ

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 72.

هو ليس فقط "مؤسسة اجتماعية" بالمعنى الميرتوني، وإنما أيضاً وأساساً مجموعة معارف وممارسات بحثية. (1)

## 2 - تنوع مواضع التحليل السوسيولوجي.

إذا كان العلم والتكنولوجيا قد قدّما خدمات للمجتمع، فإنهما في الوقت نفسه أنتجا بعض السلبيات التي أصابت المجتمع. ونتيجة لذلك ظهرت عدة جمعيات وصحف ساهمت في التساؤلات حول الأدوار الاجتماعية للعلم وتحويل تحليل العلوم إلى نقد اجتماعي بكل معنى الكلمة. ومن هذا المنطلق بنى البحث السوسيولوجي مجموعة من المحاور، منها: 1/ المحددات الاجتماعية لمحتويات المعرفة العلمية. 2/ تنظيم الأبحاث في المختبرات وتطبيقاتها. 3/ نشوء فروع علمية جديدة. وتمثل هذه المحاور مجموعات مركبة ستؤدي في المرحلة التالية في الثمانينات إلى ظهور عدد معين من التيارات الفرعية داخل علم اجتماع العلوم.

### ثالثاً- تفسير محتوى طبيعة المعرفة العلمية سوسيولوجياً:

في كتابه "المعرفة العلمية والنظرية الاجتماعية" (1974) يدّعي بارنز عرض المبادئ النظرية العامة التي تسمح بفهم طبيعة المعارف سوسيولوجياً، فهذه المعارف العلمية، كما يؤكد بارنز، لا تملك وضعاً مميزاً بالنسبة إلى غيرها من المعارف، إنها شكل معرفي من بين أشكال أخرى. وتقوم مهمة عالم اجتماع المعرفة العلمية على اظهار طريقة عمل العلماء حين يعتبرون هذه أو تلك من المعارف صحيحة أم خاطئة وذلك من دون ادخال عنصر الحكم حول قيمتها الباطنة (المستحدثة من طبيعتها الأصلية). وهذا العمل يفترض الاشتغال المتزامن لثلاث قضايا افتراضية.

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 73.

أ - إن القسم الأكبر من المعارف العلمية هو من طبيعة نظرية: "إن النظريات مفروضة على الواقع أكثر من أنها مستمدة منه".

ب - ينبني معنى المصطلحات العلمية، وتطبيقها اللاحق انطلاقاً من موقعها في النظرية.

ج - لا تكتسب الافتراضات الواقعية معناها إلا بالنسبة إلى توجهات نظرية موجودة مسبقاً. (1)

أما بلور فيعلن أربعة مبادئ لبرنامجها في علم اجتماع المعرفة العلمية: "السببية"، "الحيادية"، "التناظر"، و"الانعكاسية".

- السببية: Causalité يهتم علم الاجتماع بالشروط التي تؤكد المعتقدات أو أطوار المعارف المعاينة.

- الحيادية: Impartialité يجب أن يكون علم الاجتماع محايداً حيال الصحة أو البطلان، العقلانية أو اللاعقلانية، النجاح أو الفشل.

- التناظر: Symétrie على أنماط الأسباب نفسها أن تفسر معاً المعتقدات الصحيحة والمعتقدات الباطلة.

- التفكير الانعكاسي (الانعكاسية) Réflexivité: على النماذج التفسيرية السوسيولوجية أن تطبق على علم الاجتماع نفسه. (2)

1 - نفس المرجع، ص. 76 - 77.

2 - نفس المرجع، ص. 79.

لقد أعلن بارنز وبلور عن مقارنة سببية للمعرفة العلمية إلا أن أعمالهم تتميز غالباً بغياب التفكير حول مفهوم "السبب" واستخداماته في العلوم الاجتماعية والانسانية.

#### رابعاً- العلم بصفته بناءً:

يتناول هذا المحور الممارسات البحثية في المختبرات، الإنصات إلى الأقوال، قراءة النصوص، تحليل الانتاج ووظائف القياسات التي تولدها الأدوات... يقدم أنصار هذا الاتجاه (برونو لاتور، ستيف فولغار، كارن كنور ستينا ومايكل لانس). رؤية مختلفة عن سابقتها، فهؤلاء تأثروا بالتقليد الإثنوميتودولوجي، وحاولوا توضيح كيف "يبني" العلماء مادياً، ومن خلال ممارستهم اليومية، السياق الذي تأخذ منه نتائج أبحاثهم معنى، ويطلق على هذا التيار "علم الاجتماع البنائي للعلوم". لقد أصدر لاتور بالاشتراك مع فولغا كتاباً سنة 1979 بعنوان "عن حياة المختبر" وكتبا فيه ان معاينة النشاط في المختبر أظهرت أن الطابع "الموضوعي" لواقعة ما هو في حد ذاته نتيجة عمل المختبر.

وفي 1981 نشرت كارن كنور ستينا رسالة بحث في الطبيعة البنائية والسياقية للعلم، حذت فيها حذو لاتور وفولغا. لقد اختار موضوعاً للدراسة فريق بحث يعمل على بروتينات النباتات، وحاولت أن تعيد تشكيل سلسلة القرارات والمفاوضات الملازمة لهذا العمل البحثي. وبحسب الباحثة فإن الظواهر المعرفية قيد الاشتغال في التجربة التطبيقية العلمية، مثلها في ذلك مثل تلك الناجمة عنها، يجب أن تؤخذ على أنها "خلائط أجناس تحمل علامة المنطق الذي يميز انتاجها وليس مثل الزوائد الفطرية لعقائنية علمية مخصوصة. وتصف كنور ستينا الطابع المحلية التي يركز عليها العمل اليومي للباحثين، فتكتب أنه "مثل أي تنظيم آخر، تطور المختبرات تأويلات محلية

للقواعد المنهجية، ومهارة محلية فيما يخص ما يجب القيام به لكي تجري الأمور على أفضل وجه في تطبيق البحث". (1)

## خامساً - منظورات سوسيولوجية حول أسس الجماعة العلمية:

الموضوع هنا هو التحليلات السوسيولوجية الرئيسية حول طبيعة العلم "بصفته جماعة"، أو "تنظيماً اجتماعياً". ولقد تناول علم اجتماع العلوم مسألة أي جماعة علمية من خلال عدة منظورات.

### 1- الجماعة العلمية باعتبارها وحدة معيارية.

لا يكفي أن ندّعي أننا علماء حتى يتم الاعتراف بنا كعلماء. أن تكون عالماً يعني أن تنتمي إلى كل اجتماعي متشكل من مجموع الفاعلين، الفرديين أو الجماعيين، أي "الجماعة العلمية"، لكن ما معنى ذلك؟ - معناه أولاً: أن تنتمي إلى نسق اجتماعي يمكن تمييزه عن الأنساق الأخرى. وثانياً: أن يتم اختيارك وادماجك في نسق يقيم فاعلوه علاقات ترابط وفق طرائق تتوافق مع مبادئ معيارية مخصوصة. وأخيراً يعني أنك موضع لمراقبة اجتماعية. (2)

### 2 - تعدد أدوار العالم.

أكد العديد من علماء الاجتماع التنوع الأصلي للوظائف الملازمة لدور العالم، وذلك بغض النظر عن مسألة بروزه التاريخي. ففي كتابه "الدور الاجتماعي لرجل المعرفة" يلاحظ زنانبيكي أن الشخص الذي يقدر له أن ينتج معرفة، يكون في موقع احتلال

1 - نفس المرجع، ص. 85-86.

2 - نفس المرجع، ص. 113.

وظائف متعددة خلال حياته، تارة بالتوالي وأخرى بالتزامن. "وخلاصة مجموع هذه الأدوار الاجتماعية التي يحتلها منذ ولادته وحتى وفاته تشكل شخصيته الاجتماعية". (1)

ووضع زنانبيكي على هذا الأساس نموذجاً تصنيفياً لأدوار المعرفة حسب نوعها. وبالفعل وجد أن هناك صلة بين الأدوار الاجتماعية التي يحتلها الرجل والعلم الذي ينتجه. ويميز أربعة أنواع من المعرفة وأدوار عدة تنتسب إليها: المعرفة التقنية، معرفة الحس المشترك أو الفهم العام، الحكمة، والمعرفة المقدسة أو المطلقة. وبالتالي هناك المستشار التقني ورائد التكنولوجيا.... والحكام، والعلماء، والمكتشفين، والمنظمين، والمساهمين والموزعين والمتقابلين من أجل الحقيقة. (2)

### 3. - الضوابط الأخلاقية للعلم.

يذكر ميرتون هذا الموضوع في مقال له بعنوان "العلم والتكنولوجيا في نظام ديمقراطي" حيث قدم فيه ما يعتبره خُلُق العلم: "أي مجموعة القيم والضوابط ذات الصبغة العاطفية والتي يفترض أن تؤثر تأثيراً قاهراً في رجل العلم. ويتم التعبير عن هذه الضوابط في صورة وصفات وتحريمات واستحبابات وإباحات، كما ويتم شرعنتها باصطلاحات قيم مؤسسية. وهي التي تشكل ضميره العلمي. ويقدم ميرتون أربعة مقتضيات أو إلزامات معيارية يُشكل التقاؤها ميزة خاصة بالخلق العلمي، وهي: "العمومية"، "المشاعية"، "النزاهة"، "الشك المنظم". (3)

1 - نفس المرجع، ص. 124-125.

2 - نفس المرجع، ص. 126.

3 - نفس المرجع، ص. 133-134.

- العمومية: يعني تبني قاعدة الزمرة المهنية التي ينتمي إليها العالم والتي تقضي بأن تقويم نوعية عمل أعضاء هذه الزمرة أمر مستقل عن سماتهم الشخصية أو الاجتماعية. (العالم عنده وطن والعلم لا وطن له).

- المشاعية: أما عن أخلاق المشاعية فتصف الطابع العام للنشاط العلمي، وهذه المشاعية هي "مشاعية التعاون التنافسي" التي تربط الباحثين ببعضهم البعض. إن هؤلاء يتعاونون من أجل إنتاج معارف أصلية. وهم يعترفون لبعضهم البعض بالإلزام الأخلاقي بأن يشركوا غيرهم نتائج أعمالهم، أي بأن يؤمنوا لها الانتشار. إن مشاعية العلم التي يصفها ميرتون، تحيلنا إلى شكل مخصوص من أشكال الملكية الفكرية، إذ هي تختزل بشكل رئيسي بالنسبة للعالم، في الاعتراف الاجتماعي بأهمية عمله. وهذا الاعتراف قد يجزيه جاهاً وشرفاً ومكافآت، على المدى البعيد والقصير، ولكنه لن ينال أبداً الامتياز الحصري لاستغلال نتائج أعماله. إنه يستطيع أن يحصل على براءة الاختراع إلا أن هذه الإجازة تحمي الحقوق المتعلقة بتطبيقات اختراعه ولكن ليس الاختراع بحد ذاته.

- النزاهة: يميز ميرتون هنا الالتزام المؤسسي عن الدافع النفسي - الغيرية Autruisme أو الأنانية Egoisme، فالعالم ليس كالطبيب أو المحامي. ليس أنه لا يبيع خدمة وليس له زبائن وإنما هو أكثر من ذلك، فأولئك الذين ينشر بينهم نتائج أعماله هم غالباً أكفاء إلى حد مراقبة أصالتها والطابع العمومي للبحث ليس غريباً عن أخلاق الاستقامة التي تميز بحسب ميرتون العلم باعتباره مؤسسة. (1)

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 137.

- الشك المنظم: هذا الالتزام الأخير يصف الواجب الأخلاقي للعالم بأنه يبقى على استعداد فكري دائم لتلقي النقد العقلاني.

## الفصل السابع: علم اجتماع الفعل وعلم اجتماع الجسد

أولاً: علم اجتماع الفعل

1 - يورغن هابرماس، تكامل نظريتي الفعل والنظم

ثانياً: علم اجتماع الجسد

1 - الأسس الاجتماعية للصحة

2 - الطب والمجتمع

3 - منظورات في علم الاجتماع حول الصحة والمرض

## الفصل السابع:

### علم اجتماع الفعل والجسد.

أولاً: علم اجتماع الفعل

#### 1 -يورغن هابرماس: تكامل نظريتي الفعل والنظم.

هابرماس فيلسوف وعالم اجتماع الماني معاصر، وهو من أهم منظري مدرسة فرانكفورت النقدية، وتنوعت كتاباته بين الفلسفة وعلم الاجتماع، وألف العديد من الكتب في شتى المواضيع ونشر في عدة مجلات وجرائد دولية في الفلسفة والسياسة.... ويعد كتابه نظرية الفعل التواصلي أهم كتاب في مشروعه.

يركز هذا الفصل على أطروحة هابرماس في التواصل والفعل التواصلي حيث ذهب في كتابه المذكور إلى مدخل أكثر تكامل في التنظير الاجتماعي، خصوصاً في عنوان فرعي لهذا الكتاب: "المنطق وترشيد المجتمع".

وقد حوّل هابرماس تركيزه إلى تحقيق التكامل بين نظرية الفعل ونظرية النظم. حيث يميز بين عالم الحياة (عالم على المستوى الأصغر يتوصل فيه المشاركون في الاتصال إلى فهم مشترك حول شيء ما) والنسق الاجتماعي الأكبر وأنساقه الفرعية. وينبغي القيام بهذا التمييز بين عالم الحياة والنسق الاجتماعي، ودراسة ترشيد كل منهما دراسة مستقلة، وبدون ذلك يمكن أن توقعه جهوده -أي هابرماس- لتحقيق التكامل النظري في نفس الشرك الذي وجد بارسونز نفسه فيه، بمعنى أن نظرية النظم يمكن بسهولة ان تمتص نظرية الفعل وتخضعها لها. ولم يكن هابرماس يرغب بنظرية

الانساق على المستويات الكبرى أن تسحق نظرية الفعل، وبالتالي حاول أن يطور مدخلاً لتحقيق التكامل بين هاتين النظريتين.

ويفرق هابرماس بين ترشيد النسق الاجتماعي (المجتمع) وترشيد عالم الحياة. فإذا كان الترشيد المجتمعي يتضمن اضعاف الطابع المؤسسي على النسق المعياري، فإن ترشيد عالم الحياة يسمح بالتفاعلات التي لا يوجهها الاتفاق المعياري الموروث، وإنما يوجهها الفهم الاتصالي المكتسب توجيهاً مباشراً وغير مباشر. وبعبارة أخرى، فإن ترشيد عالم الحياة يتطلب أن يتوصل الناس إلى اتفاق بإرادتهم الحرة بدلاً من وصولهم إلى اتفاق تحدده عوامل خارجية.

واستناداً إلى التمييز بين الترشيد عند هذين المستويين يزعم هابرماس أن الترشيد في العالم المعاصر لا يحدث بمعدل متساو، فالنسق الاجتماعي يترشد بدرجة أسرع من عالم الحياة. ونتيجة لذلك أصبح عالم الحياة يسوده نسق اجتماعي رشيد. ولذلك أصبحت الحياة اليومية مسلوقة القوة. ويكمن الحل - في رأي هابرماس - في التحرر من الاستعمار المجتمعي لعالم الحياة بما يسمح له أن يترشد بالطريقة المناسبة له (الاتفاق الاتصالي الحر).<sup>(1)</sup>

وبإضافة عالم الحياة والمجتمع إلى دائرة اهتمامه بالفعل الاتصالي، حدد هابرماس لنفسه في السنوات الحديثة مهمة أكثر طموحاً وتكاملاً، وبهذا تحول بعيداً عن جذوره في النظريتين الماركسية والنقدية إلى الانشغال بأعمال بارسونز (مستوى النسق) وشوتز (عالم الحياة). وتعهد هابرماس بعد ذلك بمزيد من التكامل في تحليلاته المقبلة لأعمال

<sup>1</sup> - مصطفى خلف عبد الجواد، مرجع سابق، ص. 370.

ميد مع تأسيسه النظري الاتصالي لعلم الاجتماع، ولأعمال دوركايم مع نظريته في التضامن الاجتماعي التي تربط بين التكامل الاجتماعي وتكامل النسق.

ويهتم هابرماس بدراسة التكامل على المستويين النظري والأنطولوجي. فعلى المستوى النظري نجده يسعى إلى ربط نظرية الفعل ونظرية النظم. وعلى المستوى الأنطولوجي يحاول توطيد العلاقة بين عالم الحياة والنسق الاجتماعي. ويعد هابرماس نموذجاً يقتدى به في دراسة التكامل على المستويين: النظري والأنطولوجي.<sup>(1)</sup>

يوشك هابرماس أن يمسك بقطبي الحياة الاجتماعية وهما الفعل والبنية، دون تحويل أحدهما إلى الآخر.

## ثانياً: علم اجتماع الجسد.

طُرح موضوع الجسد في السنوات الأخيرة بقوة على الساحة الفكرية، بعد أن كان معيباً ومهمشاً تماماً ومفرغاً من دوره في تشكيل الحقيقة الاجتماعية. أما علم اجتماع الجسد فهو من ميادين البحث الجديدة نسبياً في علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية عموماً. وفي هذا الميدان يجري استقصاء الطرق والأوجه التي يتأثر فيها الجسم أو الجسد البشري بالعوامل والمؤثرات الاجتماعية. فالجسد البشري ليس كياناً فيزيقياً مادياً يعيش في الفراغ أو خارج السياق الاجتماعي أو التجارب التي نمر بها في تفاعلاتنا المحدودة مع منظومات التجارب والبيئات النفسية والروحية والاجتماعية والاقتصادية والطبيعية التي تكتنف وجودنا الانساني. وقد بدأ علماء الاجتماع في الأونة الأخيرة بإدراك الأغوار العميقة لطبيعة الترابطات القائمة بين الحياة الاجتماعية والجسد، وأخذ هذا المجال يكتسب أهمية متزايدة في العلوم الاجتماعية على وجه العموم.

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 371.

إن علم اجتماع الجسد يجمع ويستقطب عدداً كبيراً من المجالات من بينها أثر التغيير الاجتماعي على الجسد البشري. فعمليات التغيير المطرد المتسارع التي نعيشها في عالم تطرح أمامنا أخطاراً وتحديات مهمة تترك بدورها أثراً عميقاً في الجسم والصحة، غير أنها تفسح أمامنا مجموعة كبيرة من الخيارات عن أفضل السبل التي تُفضي بنا إلى العناية بصحتنا. إن الطب والعناية الصحية يمران الآن بتحولات بارزة تتيح للأفراد أداء أدوار أكبر في العناية بأنفسهم ومعالجة ما قد ينتابهم من أمراض. وفي الوقت نفسه، فإن العلاقة بين الخبرات الطبية والمرضى قد أخذت بالتغيير في كثير من المجتمعات، وأخذ كل من المرضى والأطباء يبحثون عما يعرف الآن بالطب البديل. (1)

## 1- الأسس الاجتماعية للصحة:

يشهد العالم ارتفاعاً متزايداً في مستوى العمر خصوصاً في البلدان الصناعية، حيث تم استئصال أمراض وأوبئة عديدة مثل كساح الأطفال الحمى القرمزية السل... وأن مستوى الصحة عال بصفة عامة، ويرجع السبب إلى ارتفاع الطب الحديث، والبحوث الطبية، التي عملت على الكشف عن الأسباب البيولوجية للمرض. كما تم ابتكار وسائل عديدة للعلاج والسيطرة على المرض.

أصبحت قضايا المرض والصحة والاهتمام بها على هذا النحو بالغة التأثير في الحياة الحديثة، ولكن علماء الاجتماع يرفضونها لأنهم ينظرون إليها من منظور مغاير تماماً. فالاتجاه التقليدي يغفل الدور المهم الذي تؤديه المؤثرات الاجتماعية والبيئية على أنماط الصحة والمرض. فالتحسن العام الذي طرأ على الصحة العامة خلال القرن الماضي لا

<sup>1</sup> - أنتوني غيدنز، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص. 225.

يمكنه أن يخفي على أعيننا أن ثمة خلافاً واضحاً وصارخاً في توزيع الصحة والمرض في أوساط المجتمع الواحد أو بين المجتمعات في مختلف بقاع الأرض. وقد أظهرت الدراسات أن جماعات محددة من المجتمع تتمتع بمستويات صحية أفضل من غيرها، مثلما أن المرض وتدني الأوضاع الصحية ينتشران بصورة أوسع لدى الشعوب والطبقات والشرائح الفقيرة في مجتمعات العالم بأسره. وترتبط ظاهرة اللامساواة الصحية هذه ارتباطاً وثيقاً بأنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية. وأنه بالرغم من اتفاق الدارسين على أن ثمة ترابطاً بين الصحة واللامساواة الاجتماعية، إلا أنهم يختلفون حول طبيعة هذا الترابط. (1) وتتمثل إحدى النقاط التي يثار حولها الجدل في أهمية المتغيرات الفردية (مثل أسلوب الحياة والسلوك، والتغذية، والأنماط الثقافية) مقابل عوامل أخرى بيئية أو بنيوية (مثل توزيع الدخل والفقير).

## أ - الطبقة والصحة:

تدل الدراسات التي أجريت على الصحة والوضع الطبقي على وجود صلة واضحة بين معدلات وفيات الرضع ونسبة المرض من جهة، والطبقة الاجتماعية للفرد من جهة أخرى.

## ب - الجونسة والصحة:

تشير الدراسات إلى أن ثمة تفاوتاً ملحوظاً في الأوضاع الصحية عامة بين الرجال والنساء. فالعمر المتوقع للنساء، على العموم، هو أطول مما هو للرجال في جميع بلدان العالم على الاطلاق. وفي نفس الوقت، فإن نسبة تكرار المرض في أوساط

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 226.

النساء أقل مما هي بين الرجال ولا سيما عند تقدمهن في السن. وهن أكثر ميلاً إلى طلب المساعدة الطبية، كما أن النساء في المجتمعات الصناعية يبلّغن عن اصابتهم بحالات القلق والاكتئاب بنسبة تعادل ضعف ما يشيع بين الرجال. أما في الدول النامية، فإن المرأة أطول عمراً من الرجل على العموم غير أنها أكثر تعرضاً للمرض والعجز من الرجال.

## 2 - الطب والمجتمع:

أسهم المفكر الفرنسي ميشال فوكو اسهاماً مؤثراً في فهمنا لظهور الطب الحديث عندما لفت انتباهنا إلى قيام الدولة بعملية تنظيم الأجسام البشرية وانضباطها، فهو يرى أن الحياة الجنسية والسلوك الجنسي يكتسبان أهمية مركزية خلال هذه العملية. لقد كان الجنس هو الوسيلة التي ينمو بها السكان ويتكاثرون مثلما أنه يمثل الخطر الذي يتهدد صحة الدولة واستقرارها. وأصبحت الحياة الجنسية التي لا ترتبط بالإنجاب من الأمور التي يتوجب قمعها وضبطها. وجرت عملية مراقبة الدولة للحياة الجنسية في جانب منها عن طريق جمع البيانات عن الزواج والسلوك الجنسي والولادات الشرعية وغير الشرعية واستخدام موانع الحمل والسماح بالاجهاض. وواكبت عملية الرقابة هذه الدعوة إلى قيام معايير عامة لإرساء الأخلاق الجنسية وتحديد النشاط الجنسي المقبول.

لقد تبلورت فكرة الصحة العامة بوصفها محاولة لاستئصال الأطراف الموبوءة من السكان، أي من الجسم الاجتماعي. وبدأت الدولة بتولي مسؤوليتها في تحسين الظروف والأوضاع التي يعيشها الناس. وطورت أنظمة الصرف الصحي وتوزيع المياه لحماية السكان من الأمراض والأوبئة، وعبّدت الطرق واهتمت بقضية الإسكان... ونشأت من

ثم السجون والملاجيء والمدارس والمستشفيات... كجزء من عملية مراقبة الناس وضبطهم واصلاحهم.(1)

### 3 - منظورات في علم الاجتماع حول الصحة والمرض:

للمرض بعدين أساسيين، أحدهما شخصي والآخر عام واجتماعي. إن اصابة أحدنا بالمرض لا تلحق به مجرد الاحساس الفردي بالألم والخوف والحيرة والارتباك، بل انها تؤثر في الآخرين حوله. كما أن الناس الذين حولنا أو الذين نتعامل معهم يتعاطفون مع حالتنا المرضية أو يمدون يد المساعدة أو تقديم الرعاية المساندة. ولقد برز في الفكر الاجتماعي أسلوبان متميزان ومؤثران لفهم تجربة المرض. المفهوم الأول الذي ارتبط بالمدرسة الوظيفية يضع بعض المعايير والقواعد السلوكية التي يعتقد أن الأفراد ينتهجونها في حالة المرض. أما المفهوم الثاني الذي يطرحه التفاعليون الرمزيون فيمثل محاولة أوسع لتقديم المبررات والتفسيرات التي توافق حالة المرض، والكيفية التي تؤثر فيها هذه المعاني على أفعال الناس وأنماط سلوكهم.

#### أ - دور المريض:

طرح زعيم الوظيفية تالكوت بارسونز فكرة (دور المريض) لتفسير أنماط السلوك التي يسلكها المريض لتخفيف الآثار الضارة المربكة التي يخلفها المرض. ويرى الوظيفيون عموماً أن المجتمع في العادة يعمل بطريقة سلسة وشبه اجتماعية، ومن هنا فإن المرض يمثل نوعاً من الخلل الذي يؤدي إلى اضطراب انسياب هذه الحالة الاجتماعية الاعتيادية. فالمريض على سبيل المثال، قد لا يستطيع أن يؤدي أدواره المتوقعة، أو ربما

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 234-235.

لا يكون أداءه على ما عهد فيه من كفاءة. ونظراً لأن المرضى لا يستطيعون القيام بأدوارهم المعتادة، فإن حياة من حولهم من الناس يعترئها الاضطراب والارتباك.

## الفصل الثامن: النظرية النسوية

- 1 - النظرية النسوية في الفكر السوسيولوجي الكلاسيكي
- 2 - النظرية النسوية الليبرالية
- 3 - الاتجاه النسوي الماركسي
- 4 - الاتجاه النسوي الراديكالي

## الفصل الثامن

### النظرية النسوية.

إن القضية الأساسية التي اهتمت بها النظرية النسوية، هي عدم مساواة المرأة بالرجل أو التبعية له أو هيمنته عليها. فتدرس النظريات النسوية وتحاول أن تشرح الأسباب والظروف التي يكون فيها الرجال أكثر نفوذاً. وعلى مدى تاريخها، كان تنظير النسوية نشاطاً انشغلت به كثير من النساء في ظروف مختلفة.

وتعتمد النظرية النسوية على الافتراض الضمني بأنها ستساعد في تحرير المرأة. وأن هذه النظرية محاولة لجمع تبصرات من الحركة ومن تجارب أنثوية متنوعة. فعلى الرغم من أن هذه النظرية تبدأ بالحاجة العاجلة لإنهاء اضطهاد المرأة، إلا أنها كذلك طريقة لرؤية العالم. كما أنها تقدم أساساً لفهم كل مجال من حياتنا، وهذا المنظور يمكنه أن يؤثر على العالم سياسياً واقتصادياً وثقافياً وروحياً. ولكن بالرغم من ذلك مازالت هذه النظرية في مرحلة النشوء ولا توجد لها اجابات متفق عليها.

### **أولاً- الفكر السوسيولوجي الكلاسيكي.**

بوسعنا أن نفسر غياب قضية الجنوسية لدى مؤسسي علم الاجتماع بالرجوع إلى الاشارات العابرة العرضية التي طرحها اثنان من هذا الرعيل المؤسس. فدوركايم على سبيل المثال، في معرض مناقشته ظاهرة الانتحار يلاحظ أن "الرجل يكاد يكون واحداً من منتجات المجتمع"، بينما المرأة "أحد منتجات الطبيعة إلى حد أبعد من ذلك بكثير". ويستطرد دوركايم قائلاً: "إن أذواق الرجل وتطلعاته ومزاجه تعود في أغلبها إلى أصول

جماعية، بينما يتأثر ذوق المرأة ومزاجها وطموحها بما يمليه تكوينها الجسماني العضوي. وعلى هذا الأساس تختلف احتياجاته عن احتياجاتها"<sup>(1)</sup>.

ويقف ماركس على النقيض من دوركايم في هذه المسألة، فالفوارق الجنوسية تكمن في نظره فيما يتمتع به الرجال والنساء من سلطة/ قوة ومكانة، وعلى أساس التقسيمات الطبقية، ولا سيما ما يتعلق بالنساء. فلم تكن التقسيمات الجنوسية أو الطبقية في نظره معروفة في الأشكال الأولى للمجتمعات البشرية. ولم تظهر سلطة الرجل النافذة على المرأة إلا بعد نشوء التنظيمات الطبقية. وأصبحت المرأة بعدها شكلاً من أشكال "الملكية الفردية" للرجال عبر مؤسسة الزواج. وسوف تتحرر المرأة من أوضاع العبودية تلك حالما تزول الفوارق الطبقية.

ومن الممكن الإشارة إلى بعض الانتقادات الموجهة إلى كل من دوركايم وماركس بهذا الصدد، فالأول، من الوجهة العملية، يعتبر الفوارق الجنوسية قائمة في أساسها على الصفات البيولوجية التي تُسبغ على الرجال والنساء. ولا يعني ذلك أن هذه الفوارق خلقية في أساسها، وأنها تولد مع الرجال والنساء على السواء. بل إن هذه الفوارق، كما نعرف، تعود، في أغلبها، إلى التنشئة الاجتماعية على أدوار محددة بالنسبة للرجال والنساء. وأما بالنسبة إلى ماركس، فيمكن القول إن الوضع الطبقي ليس هو العامل الوحيد في إقامة الفواصل الاجتماعية التي تؤثر في النساء والرجال. فهناك عوامل عديدة أخرى مثل البعد الإثني، واختلاف الخلفيات الاجتماعية.

وقد أحدثت الحركات النسوية تغيرات جذرية في علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى خلال العقود الماضية. وقد أدت النزعة النسوية إلى هجمة واسعة على النظرية

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 241-242.

الاجتماعية ومنهجيات العلوم الاجتماعية على حد سواء، بل إنها أخذت تمس موضوع العلوم الاجتماعية نفسه في المطالبة بالتقليل من هيمنة المنظور الذكوري من ناحية، وإعادة هيكلة المنهجيات والمنظورات في الوقت نفسه.

وتتهم الاتجاهات النسوية المنهجيات السوسولوجية التقليدية بتجاهل الطبيعة الجنوسية للمعرفة، والاستعاضة عنها بمفاهيم وتصورات هيمن عليها الذكور إزاء العالم الاجتماعي. وحيث إن الذكور كانوا يتمتعون تقليدياً بمواقع السلطة والقوة في المجتمع، فقد كانت لهم مصلحة في الحفاظ على ما يقومون به من أدوار وما يتمتعون به من امتيازات. وفي ظل هذه الظروف، أدت المعرفة الجنوسية دوراً حيوياً في ترسيخ الترفقات الاجتماعية وازدراء الشرعية على الهيمنة الذكورية.

## ثانياً – النظرية النسوية الليبرالية:

يقوم هذا الاتجاه في النظرية النسوية على فرضية بسيطة وهي أن جميع الناس قد خلقوا متساويين، ولا ينبغي حرمانهم من المساواة بسبب نوع الجنس، ويرتكز هذا المذهب على المعتقدات التي جاء بها عصر التنوير والتي تنادي بالإيمان بالعقلانية والإيمان بأن المرأة والرجل يتمتعان بنفس الملكات العقلية الرشيدة، والإيمان بأن التعليم كوسيلة لتغيير وتحويل المجتمع، والإيمان بمبدأ الحقوق الطبيعية.

تلفت هذه النظرية الانتباه إلى عدد كبير من العوامل المنفصلة التي تسهم في خلق التفاوت بين الرجال والنساء. فهي، مثلاً تركز على التحيز الجنسي والتفرقة في المعاملة ضد النساء في أماكن العمل وفي المؤسسات التعليمية ووسائل الإعلام الجماهيري. وعلى هذا الأساس، فإنها تركز جهودها على إيجاد وحماية الفرص المتكافئة للنساء

عبر التشريعات والوسائل الديمقراطية الأخرى. وتؤيد هذه النظرية اصدار مثل هذه التشريعات مثل قوانين المساواة في الأجر والقوانين المناهضة للتمييز ضد النساء والقوانين الأخرى التي تجعل للنساء والرجال حقوق متساوية أمام القانون. ويسعى أنصار المدرسة النسوية الليبرالية من خلال الأنظمة القائمة إلى تحقيق الاصلاحات بصورة تدريجية. (1)

لقد أفلحت المدرسة الليبرالية النسوية في تحقيق منجزات كثيرة للنساء خلال القرن الماضي، غير، أنها في نظر بعض النقاد، أخفقت في معالجة جذور التفاوت الجنوسي وأسبابه العميقة، كما أن هذه المدرسة لا تعترف بطبيعة القمع الذي تعانيه المرأة في المجتمع بمجمله. كما أن هذه المدرسة تتناول جوانب مجزأة من القضية لأنها تركز على معاناة المرأة في مجالات صغيرة ومحددة مثل التحيز الجنسي، والتفرقة، وتفاوت الأجر.

ويُتهم أنصار النسوية الليبرالية بأنهم يشجعون النساء على قبول واقع اجتماعي يفتقر إلى المساواة والعدل والانصاف ويغلب عليه الطابع التنافسي.

### ثالثاً - الاتجاه النسوي الماركسي:

لم ترفض النسوية الماركسية (الاشتراكية) قضايا الاتجاه الفردي الليبرالي الخاصة بالحرية والمساواة، ولكنها اعترضت على تطبيق مفاهيم القيمة والمكانة على أفراد منفصلين اجتماعياً عن حياتهم ككائنات اجتماعية ويدركون فقط بوصفهم أفراداً مستقلين أكثر من إدراكهم في إطار الحياة الجمعية والأفعال الاجتماعية. (2)

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 196.

<sup>2</sup> - السيد حنفي عوض، الحركات النسائية العمالية وتحديات سوق العمل: دراسات في علم الاجتماع النسوي، مطبعة نور الإيمان، القاهرة، 2001، ص. 72.

وتتمثل الفكرة الأساسية في النسوية الاشتراكية في الافتراض بأن الزواج البرجوازي يعاد انتاجه في شكل صراعات وتناقضات المجتمع البرجوازي الأكبر، فالزوجات يمثلن الطبقة المضطهدة أو حتى العبيد بينما تمثل السلطة الأبوية في هذه الطبقة دور أصحاب الأعمال والأموال. ويشير هذا التحليل إلى الرجال كأعداء للمرأة وأن صراعاتهم يعد انعكاساً لصراع أكبر حيث تشتغل النساء في سياق الرأسمالية. وبهذا فإن الرجال هيئات النظام الاستغلالي وهم بدورهم مضطهدون، فالمساواة بالرجال التي يطالب بها الليبراليون ليس لها معنى بالنسبة للاشتراكية حيث أنها تعني مساواة مع جماعة مضطهدة بالفعل في إطار نظام اجتماعي فاسد.

سلم هذا الاتجاه أيضاً بأن حل التناقضات الطبقيّة ونجاح الثورات الاشتراكية هو أمر حتمي في الغاء كافة أشكال التمييز بالمجتمع، وهذا بالدعوة إلى تبني فكرة (تنمية الوعي). ويُقصد بهذه الفكرة ضرورة وجود نظرية للمرأة تسيّر مع الدعوة إلى الثورة الاشتراكية، وتساعد النساء على فهم خصوصية الاضطهاد. وانعكس ذلك في صورة قيم ومفاهيم وأفكار طبعت العلاقة بين المرأة والرجل بطابع تقليدي يصعب تغييره، إلا بوجود وعي نسوي يحرر طرفي العلاقة من كثير من القيم والمفاهيم والتقاليد الموروثة.<sup>(1)</sup>

#### رابعاً - الاتجاه النسوي الراديكالي:

ظهرت هذه النظرية خلال الفترة من نهاية الستينات والسبعينات من القرن الماضي، حين أدركت الحركة النسائية مدى القهر الذي تتعرض له النساء بسبب المعاملة السيئة

<sup>1</sup> - فانتن أحمد، عرض تحليلي للاتجاهات الحديثة في دراسة المرأة، في علياء شكري وآخرون، علم اجتماع المرأة، مكتب زهراء الشرق، القاهرة، 2001، ص5.

من الرجال. ومن هنا يمكن القول إن الاتجاه النسوي الراديكالي جاء كرد فعل تاريخي تجاه نظريات التنظيم والاتجاه نحو حركة اليسار الجديد.

يطالب الاتجاه الراديكالي للمرأة ليس فقط بمكانة متساوية مع الرجل، بل ينظر للمرأة باعتبارها تمثل إحدى الأولويات السامية، وبالتالي المطالبة بإذعان الرجل للمرأة، بل باستبعاد الرجال جميعاً من عالم النساء. <sup>(1)</sup> وكان من نتائج هذا، ظهور الحركة النسائية الأمريكية من جديد كحركة مضادة لمناهضة السلطة الأبوية (البطيركية) للرجال وعزلهن من سوق العمل.

ويختلف النسويون الراديكاليون في تفسيرهم للأسس التي قامت عليها البطيركية، غير أن أكثرهم يعتقدون بأنها تقوم على تملك جسد المرأة وعلى النشاط الجنسي بمختلف أشكاله. وترى عالمة الاجتماع شولاميت فايرستون ( Fireston ) أن الرجال يسيطرون على أدوار المرأة في عمليات الانجاب وتربية الاطفال. فالنساء مهنيات بيولوجياً لإنجاب الأطفال، ولا بد أن يعتمدن على الرجال لتوفير الحماية والمعيشة لهن من الناحية المادية المالية. وتشير الباحثة إلى نشوء طبقة متميزة مقموعة من النساء في المجتمع، وتذهب في بعض أرائها إلى درجة الدعوة إلى إلغاء العائلة لأنه الوسيلة الوحيدة لتحرير المرأة وانعتقها من علاقات السلطة والقوة.

ويشير بعض أنصار النظرية النسوية الراديكالية إلى العنف الذي يمارسه الذكور على النساء باعتباره عنواناً للتفوق الذكوري. كما أن الرجال من جانبهم هم الذين يفرضون على النساء المفاهيم الشائعة عن الجمال والجاذبية ويرغمون المجتمع بأكمله على القبول بنوع معين من الأنوثة. وعلى سبيل المثال، تساعد المعايير الاجتماعية

<sup>1</sup> - أنتوني غيدنز، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص. 197.

والثقافية التي تركّز على رشاقة الجسم والتقرب من الرجال بدورها على خضوع المرأة. وفي هذا السياق "تشيأت" المرأة، أي أصبحت شيئاً أو سلعة ما، تستخدم من خلال وسائل الاعلام ودور تصميم الأزياء ومؤسسات الاعلان كدمية وأداة للجنس ينحصر دورها الرئيسي في إرضاء الرجال وامتعاعهم.<sup>(1)</sup>

ولا تؤمن المدرسة الراديكالية بأن المرأة ستتحرر تدريجياً من القمع الجنسي، إذ لا بد من الإطاحة بالنظام البطريركي الأبوي لتحقيق المساواة بين الجنسين. غير أن هناك مآخذ كثيرة على النظرية النسوية الراديكالية. وأول هذه الانتقادات هو أن مفهوم البطريركية لا يصلح وحده لتقديم تفسير عن قمع المرأة عبر المراحل التاريخية وفي مختلف المجتمعات والثقافات، مع اغفال عناصر أخرى مثل العرق والطبقة الاجتماعية والبعد الإثني.

وفي الختام فإن من الخطأ اعتبار "الرجال" و"النساء" مجموعتين تقومان على أساس المصالح أو الخصائص المشتركة. وأن الجنوسة ليست مقولة ثابتة دائمة، بل هي مانعة متغيرة تتجسد فيما يفعله الناس فيما هم عليه بالفعل. وأن هيمنة الرجال على مجالات الحياة الاجتماعية إنما هي أسطورة آيلة للزوال، بل إن كثيراً من الدلائل في المجتمعات الغربية تشير إلى أن ثمة "أزمة رجولة" في أوساط الذكور الذين بدأوا يفقدون سيطرتهم على زمام الأمور، وبخاصة مع انتشار البطالة في قطاعات كبيرة من المجتمعات الحديثة، ومع تزايد احساس أعداد غفيرة من الرجال بالمهانة وعدم احترام الذات، لأنهم لم يعودوا هم مصدر الرزق الوحيد للأسرة.

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص.707.

## الفصل التاسع: نظرية الاختيار العقلاني

1 - خصائص نظرية الاختيار العقلاني

2 - ماركسية الاختيار العقلاني

أ - آلن كارلنغ

ب - جون آلستر

3 - نطاق التفسير في نظرية الاختيار العقلاني

4 - الانتقادات الموجهة لهذه النظرية

## الفصل التاسع:

### نظرية الاختيار العقلاني.

يقول ماكس فيبر إن العلاقات الاجتماعية ونمطيتها تعودان إلى أن البشر يتصرفون بعقلانية. فقد ميّز ماكس فيبر بين أربعة أشكال للفعل: الفعل التقليدي، الفعل العاطفي، والفعل الموجه نحو غاية عليا، والفعل الموجه نحو هدف عملي دنيوي. وهذا الأخير وحده هو الفعل العقلاني بكل معانيه، وهو الذي يسود المجتمع مع تطور الرأسمالية وانتشار الصناعة. ولقد تطور المفهوم الذي يرى أن المجتمع يتكون من أفراد يتصرفون بعقلانية على أيدي علماء الاقتصاد، وحديثاً على أيدي أصحاب نظرية اللعب game theory. وسيدرك كل من درس مادة في الاقتصاد أن هذا الرأي يكمن وراء فرضية السوق الكاملة أو فكرة المنافسة الحرة التامة، وهي أن تلتقي مجموعة من الباعة والمشتريين في السوق على قدر واحد من المعلومات، وما تختاره هذه المجموعة من البدائل هو الذي يحدد الأسعار، ويؤدي إلى توازن بين العرض والطلب. أي أن الاستقرار والنظام يتحققان من خلال أفراد يقومون باختيارات عقلانية حرّة.

### **أولاً- خصائص نظرية الاختيار العقلاني:**

لعل أسهل طريقة لايضاح الخصائص المميزة لنظرية الاختيار العقلاني، هو في التركيز على محاولتها بناء نماذج لما يقوم به الفرد إذا ما تصرف بعقلانية في موقف معين. مثلاً، أنا أعرف ما هو دخلي، وأعرف ماهي السلع والخدمات المتاحة لي وأعرف ترتيب الأشياء التي أرغب في الحصول عليها. ولذا فإنني أستطيع ترتيب البدائل المتاحة لي بحسب ما أفضل. وهناك جانب نفعي واضح في نظرية الاختيار

العقلاني: فأنا أختار ما يجلب لي أكبر درجة من الاشباع والمنفعة، إلى جانب افتراض أنني أعرف ما هو وضعي. والتفسير المنطلق من نظرية الاختيار العقلاني تفسير يعتمد على القصد، بمعنى أنه يفترض أن رغبات الفرد ومعتقداته هي مبررات فعله، غير أن هذا التفسير يذهب أبعد مدى إذ يدعي أن تلك الرغبات والاعتقادات هي أسباب للفعل. فنظرية الاختيار العقلاني نظرية معيارية كما يقدمها جون آلستر: حيث تشير النظرية إلى أكفاً وسيلة للوصول إلى هدف معين في موقف معين.<sup>(1)</sup>

## ثانياً – ماركسية الاختيار العقلاني:

تبدو الماركسية ظاهرياً وكأنها تتعارض تعارضاً كلياً مع فرضيات نظرية الاختيار العقلاني، حيث أن الماركسية كثيراً ما تُعرف (وكثيراً بشكل خاطئ) على أنها تلك النظرية التي تتبنى تفسيرات حتمية. ولكن من الممكن اعتبار ماركسية الاختيار العقلاني رد فعل النزعة الحتمية البادية في الماركسية البنيوية التي ظهرت في السبعينات، لكنها أيضاً استجابة لانتعاش السياسة اليمينية القائمة على السوق الحرة في الثمانينات، والتي تشترك في منطلقاتها الفكرية مع الفردية المنهجية، أي أن ظهور هذا التيار الماركسي كان بمنزلة منازلة العدو في عقر داره. وأشهر المفكرين هنا هو جون آلستر رغم أنه حسب رأي أيان كريب بعيد عن الماركسية. ونطرح بهذا الصدد هنا رأي آلن كارلنغ.

<sup>1</sup> - أيان كريب، مرجع سابق، ص. 102.

## 1 - آلن كارلنغ Alancarling:

يطرح كارلنغ مفهوم الندرة، فلو لم تكن مواردنا محدودة لما كنا بحاجة إلى اختيار كيفية استخدامها. وبإمكاننا أن نشق من مفهومي الندرة والاختيار ملامح أولية لنظرية في التاريخ، ملخصها أن العقلانية تعمل بشكل غير مباشر في اختيار العلاقات الاجتماعية التي تدفع بالتقنيات الانتاجية قدماً. ويتحول التبادل الحر في السوق إلى تبادل استغلالي حينما يُسهل أمر الحصول على مواد معينة لطرف دون الآخر. ويحدد كارلنغ عدة أشكال من الاستغلال تتفق بشكل عام مع النظرية الماركسية في -التاريخ سواء فيما يتعلق بالاقطاعية أو الرأسمالية أو الاشتراكية (والشكل الأخير مرتبط بعدم تكافؤ الفرص في الحصول على المكانة الاجتماعية).

## 2 - جون الستر:

يقدم الستر حلاً لما يبدو للوهلة الأولى أنه مسألة التكوين الطبقي الشائكة. فهو يرى أنه يجب النظر إلى الطبقة الاجتماعية على أنها شكل من أشكال التحالف بين مجموعة أفراد، وليس على أنها كيان قائم بذاته مستقل عن الأفراد المكونين له. بيد أنه إذا ما سعى كل فرد للحصول على الحد الأقصى من المنفعة لذاته فكيف يتصرفون معاً؟ إن هذه المشكلة تعرف في نظرية اللعب بمشكلة ((الراكب بالمجان)) - وهو يشبه قولنا: ((ولماذا أتعب نفسي؟))<sup>(1)</sup> فلو حصلت مثلاً على زيادة في مرتبي حققتها لي نقابة الأساتذة الجامعيين عبر التفاوض مع الوزارة، بغض النظر عن إذا كنت عضواً فيها أم لا، فلماذا أزعج نفسي حتى في دفع رسم الاشتراك لها؟ فهناك آخرون يعملون ويدفعون، ومساهمتي لن تغير من الأمر شيئاً. ولو لم يكن أحد ناشطاً في النقابة من الناحية

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 104.

الأخرى، وهو الأمر الذي سوف يؤدي شيئاً فشيئاً إلى اختفائها بسبب انسحاب أعضائها، أو تقاعدهم، أو لأي سبب كان، فلن يكون من المجدي أن أقوم بتحريك فردي لوحدي.

### ثالثاً- نطاق التفسير في نظرية الاختيار العقلاني:

يذهب آلن كارلنغ إلى أن هذه النظرية لا تفسر ولا يمكنها أن تفسر كل شيء، ويرفض التوجه المطروح في كثير من التنظير الماركسي، الذي يرى أن فشل النظرية في فهم جانب واحد من جوانب الحياة الاجتماعية أو تفسيره، يعتبر فشلاً في قدرتها على أي شيء. ونظرية الاختيار العقلاني -في رأيه- نظرية ((خاصة)) وليست عامة، تتعامل مع أفعال في سياقات معينة وفقاً لاختيارات محددة. وأقرب ما تتوصل إليه هذه النظرية إلى مستوى النظرية العامة هي ما يقوله حول الجمع بين العقلانية والندرة. وهذه النظرية لا تفسر السياقات التي يتجسد فيها الفعل، أو تعطي تفسيراً للدوافع غير العقلانية، كذلك فإنها لا تستطيع -كما يقول كارلنغ- أن تتعامل مع قضايا عامة كالتفرقة القائمة على الجنس (التفرقة بين المرأة والرجل) أو العرق.<sup>(1)</sup>

إن هذه النظرية لا تفترض أن جميع أفعال البشر أفعال عقلانية ويبدو أن هذه النظرية تفترض أن هناك ما يكفي من البشر الذين يتصرفون تصرفاً عقلانياً فيما يكفي من الوقت للإدعاء بأن النظرية تدعو للقبول وأنه عند محاولة فهم الفعل الانساني علينا أن نعطي الأولوية للتفسيرات والنماذج العقلانية.

والحق أن هناك طرقاً معقدة وخفية للنظر إلى عملية تقييم المواقف والاختيارات، وهي طرق تتوسع في مواقف تتسمخلها الأفكار المتعلقة بالمصلحة الذاتية بضيق الأفق.

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 106.

ف نجد مثلاً المفكر سن sen يُدخل فكرة التعاطف كأن يكون من مصلحتي الشخصية أن أخفف من آلام الآخرين. وأيضاً فكرة الإلتزام، كأن أكون ملزماً تجاه شخص آخر بحيث أضع مصلحته قبل مصلحتي. ويمكن القول إن الكثير ممن يساورهم القلق حول أنانية سلوك محبيهم، قد لا يدركون كثيراً من الأفعال التي تتم في ظاهرها عن الكرم والتفاني، إنما هي في حقيقتها أفعال للحصول على المنفعة الشخصية. ونجد أيضاً الستر ينحو أكثر فأكثر نحو اعطاء الفعل اللاعقلاني مكانة أهم مما يعطيه للفعل العقلاني، وعليه يمكننا قول الآتي.

إننا نفتح الطريق أثناء تمييزنا للفعل العقلاني، للنظر إلى الدوافع الأخرى للفعل. وبهذا المعنى تقترب النظرية كثيراً من مفهوم فيبر حول "النموذج المثالي" - حيث نستطيع أن نكشف عن الجوانب الكامنة وراء سلوك أفراد المجتمع، أو على الأقل الجوانب غير العقلانية منها، وذلك بمقارنة سلوكهم الفعلي في الحياة مع ما نتوقعه منهم، لو أنهم كانوا يتصرفون بطريقة عقلانية.

#### رابعاً - الانتقادات الموجهة لهذه النظرية:

يعتبر كتاب باري هندس Barry Hindess بعنوان "الاختيار والعقلانية والنظرية الاجتماعية" هو أشمل نقد لنظرية الاختيار العقلاني من أي نقد آخر، فيشير هندس إلى ادعاء النظرية القائل إن مجالات واسعة من النشاط الاجتماعي، يمكن فهمها بناء على فرضيات بسيطة جداً عن السلوك البشري. وهذا الادعاء له صلة وثيقة بنزعة بناء النموذج والتعامل مع هذا النموذج كما لو كان واقعاً فعلياً. ولكن النموذج لا يخبرنا شيئاً عن الدوافع الحقيقية للفاعلين الحقيقيين. فمثلاً: في عملية اتخاذ القرار المنزلي، في تركيز النساء على العمل المنزلي والرجال على العمل المأجور خارج المنزل كاختيار

عقلاني، ولكن الزوجة قد تريد العمل خارج البيت في واقع الأمر لكن الزوج يمنعها عن ذلك بالقوة أو بالتعنيف أو بالابتزاز، وفي المقابل قد لا تريد هي أن تعمل خارج البيت بغض النظر عما قد يجلبه ذلك من دخل اضافي، أو قد يفضل الزوج مستوى أدنى من المعيشة ويظل بالبيت ويرعى الأطفال، لكنها قد تصر على أن يحتفظ الزوج بعمله مستخدمة التهديد والابتزاز وما شابه ذلك. إذن، تتطابق جميع أنواع عمليات اتخاذ القرار مع النتيجة العقلانية.

ومن الانتقادات أيضاً أن هذه النظرية تفسر الفعل في ظروف معينة وضمن سُلّم معلوم من البدائل المتاحة. ويمكن الظروف ذاتها أن تفسر على أنها نتيجة لاختيارات عقلانية سابقة. وهناك نقطة أخرى يشير إليها هندس حيث يرى أنه من الخطأ الافتراض أن الأفراد هم الفاعلون الوحيدون في العالم الاجتماعي، فالى جانبهم يوجد الفاعلون الاجتماعيون أيضاً، كالمؤسسات الاقتصادية والأحزاب السياسية والحكومات. وهذه شأن الأفراد لها أهداف لا يمكن اختزالها إلى أهداف الأفراد المكونين لها واهتماماتهم.<sup>(1)</sup>

من الواضح أن نظرية الاختيار العقلاني، شأن نظرية الصراع، يمكن دمجها في نظرية بارسونز التي يلعب مفهوم الفعل الأداتي دوراً مهماً فيها. ومهما أصر أصحاب هذه النظرية على الفردية المنهجية فقد رأينا كيف كانت تُجبر دائماً على اخذ المجتمع كله بالحسبان، وإذا كنا في وضع ما في النسق الاجتماعي فإن الاختيار العقلاني، ما هو إلا وسيلة من الوسائل التي يعمل بها النسق ويعيد انتاج ذاته.

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 110.

## الفصل العاشر: مستقبل النظرية السوسيولوجية، الحادثة وما بعد

### الحدث

- 1 - الخصائص الرئيسية للحادثة
- 2 - الحادثة وعلم الاجتماع
- 3 - ما بعد الحادثة وعلم الاجتماع
- 4 - نظرية ما بعد الحادثة ونقد النظريات الشمولية
- 5 - نقد نظرية ما بعد الحادثة
- 6 - ما بعد الحادثة ومستقبل علم الاجتماع

## الفصل العاشر:

### مستقبل النظرية السوسيولوجية، الحداثة وما بعد الحداثة.

ذاعت مصطلحات التقليدي والحداثة وما بعد الحداثة في علم الاجتماع للإشارة إلى ثلاثة أنماط مختلفة من المجتمع. فالحداثة كما يعرفها ساروب Sarrup باختصار هي: "مصطلح جامع يشير إلى مجموعة من النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي ظهرت إلى الوجود في الغرب في بعض بلدانه منذ حوالي القرن الثامن عشر وما بعده." (1)

### أولاً-الخصائص الرئيسية للحداثة:

1-لخص ستيوارت هول الخصائص المميزة للمجتمع الحديث كما يلي:

سياسية: سيادة السلطة السياسية العلمانية على الدولة القومية.

اقتصادية: استبدال الاقصاديات الاقطاعية والأخرى قبل الرأسمالية باقتصاد يقوم فيه النظام النقدي (المالي) المتقدم بدور الوسيط في التبادل التجاري القائم على الانتاج الكبير واستهلاك السلع، وانتشار الملكية الخاصة، وتراكم رأس المال.

اجتماعية: نمو تقسيم جديد للعمل، وظهور طبقات جديدة، وظهور علاقات متغيرة.

دينية: ضعف الدين وظهور ثقافة مادية علمانية.

فكرية: ظهور الطريقة العقلانية العلمية في تصنيف العالم والنظر فيه.

<sup>1</sup> - مصطفى خلف عبد الجواد، مرجع سابق، ص.118.

ثقافية: نشوء مجتمعات محلية جديدة - بعضها عرقية أو قومية - تتحدى المجتمع المسيحي التقليدي. وقد طوّرت الأمم الجديدة رموزها الخاصة بها وتفسيراتها للتاريخ، وهي عملية زادت قوتها في القرن التاسع عشر. وتبني الأمم الحديثة هويتها وتقاليدتها الخاصة بطريقة انتقائية لتناسب أهدافها الخاصة. ولذلك تشكلت الهوية القومية الفرنسية بمعارضة الأرستقراطية والملكية، في حين ظلت الملكية في بريطانيا رمزاً للأمة عند الكثرة.<sup>(1)</sup>

وكانت هذه العمليات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية - كما يقول هول - بمثابة المحركات التي شكّلت الحداثة.

2- وصف غيدنز الخصائص الرئيسية للحداثة كما يلي:

\_ التصنيع: جانب مادي (آلات)، وعلاقات اجتماعية (الطبقات).

-الرأسمالية: انتاج السلع باستخدام العمل المأجور من أجل سوق تنافسية.

هذان هما العاملان الرئيسيان أما الخصائص الأخرى وهي كذلك أساسية، فهي:

- المراقبة: أي قدرة التنظيمات - بما فيها الدولة - على الحصول على معلومات عن الأفراد والجماعات ومراقبتهم.

- المقدرة على الحرب الشاملة: بسبب التكنولوجيا الصناعية.

ويرى غيدنز أن أوضح الصور الاجتماعية للحداثة هي الدولة القومية -Etat-

.nation

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص.129.

## ثانياً-الحداثة وعلم الاجتماع:

الحداثة عصر يصبح فيه العلم والعقل الوسيّلتين الأساسيتين اللتين تسعى بهما الكائنات الانسانية إلى فهم العالم وحل مشكلاته. وقد بدأ العصر الحديث للبحث والاستكشاف منذ عهد الاصلاح، إلا أن ساروب يرى أن قوة الدفع لهذا العصر اقتترنت بالثورات الصناعية والسياسية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. فما هي علاقة الحداثة باعتبارها ظاهرة ثقافية وفكرية بعلم الاجتماع في بداية ظهوره؟ يرتبط علم الاجتماع بالحداثة بعلاقة مزدوجة. فمن ناحية كان علم الاجتماع نتاجاً للحداثة وانعكاساً لها، وهو -من ناحية أخرى- محاولة لوصف المجتمع الحديث وتفسيره.

فذهب كونت إلى أن "علم الاجتماع من أجل أن نتنبأ، من أجل أن نتحكم"،<sup>(1)</sup> فإنه كان يحاكي الادعاءات الرائجة للعلماء الطبيعيين في ذلك الوقت. وبعد مرور ما يقرب من 150 عاماً على وفاة كونت، يصعب أن نعثر على عالم اجتماع اليوم يفخر بتكرار ما قاله كونت.

وبالنسبة لكونت ودوركايم في فرنسا، ومن بعدهم رادكليف براون في مدرسة لندن للاقتصاد، كانت المحاكاة الناجحة لنموذج العلم الطبيعي (أي اثبات صحة قوانين علمية اجتماعية عامة)، هي السبيل إلى ضمان الجدارة المهنية واعلاء مكانة علم الاجتماع.

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص.124.

ويتبنى كثير من علماء الاجتماع -في محاولة منهم لتحليل المجتمع الحديث - مدخل العلم الطبيعي بلا انتقاد في بعض الأحيان. وتشمل هذه المحاولة بناء النماذج. فقد قامت النظريات البنائية ببناء نماذج "علمية" محكمة عن المجتمع استخدمت بالتالي في تفسير السلوك الاجتماعي. وفي النماذج الماركسية والوظيفية الفجة يبدو البناء الاجتماعي على أنه هو الذي يحدد -دوماً- سلوك الأفراد والجماعات، مما يضيف بالتالي طابعاً ميكانيكياً على هذه النظريات.

### ثالثاً- ما بعد الحداثة وعلم الاجتماع:

هناك فكرة تقول بأن كل عصر تاريخي هو عصر من التغيير. ومع ذلك يوجد اجماع متزايد بين طائفة كبيرة من علماء الاجتماع على أن الثلاثين عاماً الأخيرة من القرن العشرين أو نحوها تميزت بتغيير اجتماعي سريع وجذري، ويشار إلى هذا التغيير بالتحول من الحداثة إلى ما بعد الحداثة أو الحداثة المتأخرة، وهو المصطلح الذي يفضله غيدنز. إلا أنه يشككي الكثير من صعوبة تحديد معنى مصطلح ما بعد الحداثة ذاته. فما بعد الحداثة حركة فنية، لعلها أوضح ما تكون في فن العمارة، ومع ذلك فهي آخذة في الانتشار إلى جميع مجالات الفنون الأخرى. وتتضمن حركة ما بعد الحداثة مجموعة من التطورات في الفلسفة الحديثة، التي انبثقت مباشرة مما أصبح يعرف بالتحول اللغوي. أما في علم الاجتماع، فإن المصطلح يشير إلى أن العالم الاجتماعي قد شهد تحولات جذرية وأساسية. والمصطلح بهذا المعنى ليس جديداً كل الجدة، إذ كثيراً ما يُشار إلى كتابات توينبي في الخمسينات باعتبارها أصلاً لهذا الاتجاه، فضلاً عن أن هذا الاتجاه له صلة معينة لتصور دانيال بيل Daniel Bell لمجتمع ما بعد

الصناعي. وفي كثير من الأحيان يوضع مصطلح ما بعد (الحدث) جنباً إلى جنب مع مصطلح آخر هو (الحدث)، مع أن العلاقة بينهما ما زالت محل أخذ ورد.

لكن ربما تكون هذه العلاقة نقطة يحسن الانطلاق منها. فالحدث ارتبطت بعصر التنوير، أو قل بمشروع التنوير، وبفكرته عن العقلانية الكلية، أي البحث عن المعرفة اليقينية وعن وسيلة للسيطرة على قوى الطبيعة والمجتمع. وفي المقابل، تنكر ما بعد الحدث وجود مثل تلك العقلانية الكلية أو امكانية المعرفة بالطريقة التقليدية التي ن فكر بها عادة. (1)

ويقول ساروب: "أن بعد الحدث تتصل بكل ما أتى بعد الحدث، ويعني التلاشي الأولي أو الحالي لتلك الصور الاجتماعية المرتبطة بالحدث. ويفترض بعض المفكرين أن ما بعد الحدث حركة في اتجاه عصر ما بعد الصناعة، ولكن هناك قدر من الغموض المحيط بهذا المصطلح: هل ما بعد الحدث يجب أن نعدها جزءاً من الحدث؟ هل هي تواصل أم تغير جذري؟ هل هي تغير طبيعي أم تشير إلى حالة مزاجية أو عقلية؟" (2)

ويفضل بعض علماء الاجتماع مثل أنتوني غيدنز وألريش بك كما ذكرنا مصطلح "الحدث المتأخرة" ويرفضون الرأي القائل بأن المجتمع الآن يعيش مرحلة ما بعد الحدث.

<sup>1</sup> - إيان كريب، مرجع سابق، ص. 236.

<sup>2</sup> - مصطفى خلف عبد الجواد، مرجع سابق، ص 124.

ومن جهته يعرف غيدنز الحداثة المتأخرة بأنها عصر يكون فيه المجتمع الحديث أكثر وعياً بتبعيات الحداثة - خاصة تبعاتها السلبية - ويؤمن بأن المشروع الحديث لتحسين الأوضاع الإنسانية (أي التقدم) لا يزال انجازه ممكناً. وليس الوقت متأخراً لكيلا نستفيد من أخطائنا. ويستخدم غيدنز مصطلح الانعكاسية Reflexivity للإشارة إلى الوعي الناقد القوي، والذي يربطه بالحداثة المتأخرة، ويعدّه من الخصائص الأساسية للحداثة المتأخرة.

أما ألريش بك فيرى أيضاً أن الانعكاسية ملمح أساسي من ملامح الحداثة المتأخرة ولكنه يعطي المصطلح صيغة مختلفة اختلافاً طفيفاً. ففي تعريفه للانعكاسية يشدد بك بصفة خاصة على الآثار التدميرية غير المقصودة للحداثة (مثل تأثير الصناعة على البيئة).<sup>(1)</sup>

إن هذه الحداثة المتأخرة - أي التدمير والدمار الطائش وغير المقصود - الذي يسببه التحديث أوجد ما أسماه بك "مجتمع المخاطر" أو ما أشار إليه غيدنز بمصطلح "عدم اليقين المصنوع". فارتفاع درجة حرارة الأرض، وتلوث واستنزاف أجزاء من البيئة، والمخاطر المرتبطة بالانتاج الضخم من الدواجن والحيوانات من أجل الغذاء (مثل المناعة ضد بعض المضادات الحيوية)، وتكاثر الأسلحة النووية والكيميائية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل - كل هذه أمثلة على التبعات الخطيرة غير المقصودة للحداثة. وفي مرحلة ما بعد الحداثة تظهر الآثار السلبية للعلم والتصنيع والحكومات الكبيرة كأشباح حقيقية وليست أشباحاً شاحبة في وليمة الحداثة.

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 125.

وعلى الرغم من الآثار الجانبية المدمرة للتصنيع، فقد نجح نجاحاً باهراً في إنتاج السلع والخدمات ولم يقل بك أو غيدنز بأن عملية تكوين الثروة المادية ينبغي تحريكها في الاتجاه المعاكس، ولم يفكر في ضرورة وجود تأييد عام لهذا الاتجاه. وفي رأيهما أنه من الضروري الالتفات إلى ورطة الخاسرين في مجتمع الحداثة المتأخرة في الغرب وعلى مستوى العالم. ولا تشمل فئة الخاسرين في مرحلة الحداثة المتأخرة أولئك الذين أفقرتهم التنمية وظلمتهم فحسب، بل وتضم أيضاً شعوب العالم الغني.

ولعل إحدى العلامات المميزة لما بعد الحداثة هي سرعة ظهور الأفكار في إطارها وسرعة اختفائها. ولقد ظل فكر ما بعد الحداثة يتطور باتجاه اللانظام، أو على الأصح، باتجاه التركيز على أن الواقع ذو طبيعة متغيرة وعلى تعددية الأنظمة. فنظرية ما بعد الحداثة تقول لنا أشياء أكثر من مجرد تصويرها لمعنى أن نعيش. فهناك احساس حقيقي بأنها تقول لنا شيئاً عن العالم، لهذا -ورغم ادعائها عكس ذلك- يمكن اعتبارها نظرية ما بعد الحداثة نظرية بالمفهوم التقليدي. فمن المستحيل الآن مثلاً، عدم أخذ بعض المفهومات التي أدخلتها إلى النظرية الاجتماعية مأخذاً جدياً -مفهومات مثل اللغة أو اللغات المتعددة التي نعبر بها عن أنفسنا والتي تحدد ما نعبر عنه. وليس من الضروري رفع هذا المستوى من التحليل وجعله الواقع الوحيد كما يفهم بأننا جزئياً، لسنا إلا نتاجاً للغتنا، وأن المعاني ليست ثابتة ثباتاً أبدياً، بل مرتبطة بعملية تغير مستمرة في علاقاتها ببعضها البعض. كذلك تخبرنا نظرية ما بعد الحداثة بالمزيد عن الفعل. وتزودنا بفهم أعمق لمفهوم الذاتية مقارنة بنظرية الفعل.

## رابعاً-نظرية ما بعد الحداثة ونقد النظريات الشمولية

نظرية ما بعد الحداثة ليست نظرية شمولية أي أنها لا تحاول تفسير كل شيء يتعلق بالحياة الاجتماعية. ويرى منظرو ما بعد الحداثة أن العالم الاجتماعي يتكون من أفراد وجماعات وثقافات عديدة ومختلفة يكون سلوكها وهويتها متغيرة، ولا يمكن التنبؤ بها على نحو دقيق. ومن ثم لا يوجد مجال لمحاولة ابتداء نظرية تسعى إلى تفسير كل ما يفعله الناس طوال الوقت.

ويورد منظرو ما بعد الحداثة سبباً آخر لتجنب "النظرية الكلية"، فهم يرون أن أية نظرية في علم الاجتماع سوف تعكس أولويات واهتمامات يمكن أن يشاركه فيها آخرون (مثلما يشترك الماركسيين في منظور عام)، فلا يوجد مبرر عقلي للاصرار على أن ذلك يشكل الطريقة الوحيدة للنظر في الحياة الاجتماعية وتنظيرها.

ويذهب بعض العلماء إلى أن نظرية ما بعد الحداثة من الأساطير الكبرى في حد ذاتها، ويرد ليوتارد على ذلك بأنها -أي نظرية ما بعد الحداثة- الأسطورة الكبيرة التي تنهي كل الأساطير الكبرى. وهذه لغة وقحة، والحقيقة هي أن نظرية ما بعد الحداثة- في أحسن أحوالها -منفتحة وتعددية ومؤقتة، وهي بمثابة مبادئ تختلف تمام الاختلاف عن المبادئ التي تجسدها النظرية الكلية.<sup>(1)</sup>

وربما يكون من أهم اسهامات نظرية ما بعد الحداثة أنها تقدم منظوراً نقدياً إلى الحداثة ذاتها بما في ذلك نظريات الحداثة مثل الماركسية والوظيفية. وبعبارة أخرى فإن ما بعد الحداثة لم تزل بعد جزءاً من الحداثة. وعلى نحو مشابه يرى أنتوني غيدنز أن ما أشار إليه كثيرون بـ "ما بعد الحداثة" مرحلة من مراحل الحداثة.

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 176

## خامساً-نقد نظرية ما بعد الحداثة

تعرضت نظرية ما بعد الحداثة لانتقادات من كل المدافعين الليبراليين عن الرشد التنويري، والماركسيين الملتزمين بالنقد المتواصل للرأسمالية (بدلاً من الحداثة). وقد شدد هؤلاء وهؤلاء من جديد على نظرياتهم الأصلية وسخروا من مزايم نظرية ما بعد الحداثة.

ففي النقد الليبرالي نجد غلنر يقول عن نظرية ما بعد الحداثة: "يستحيل أن نقدم تعريفاً متماسكاً لنظرية ما بعد الحداثة... وكل ما يمكن للمرء أن يقوله إنها نوع من الهستيريا الذاتية...". ويعبر غلنر عن اشمئزازه من فشل منظري ما بعد الحداثة في قبول الخطاب العقلي أو مفهوم القيود المؤسسية (البنائية) الخارجية بقوله: "وفي نهاية المطاف يبدو المعنى الاجرائي لنظرية ما بعد الحداثة كالاتي: رفض تأييد أي وقائع موضوعية، أية بنية اجتماعية مستقلة واستبدالها بالمعاني."<sup>(1)</sup>

أما الانتقاد الثاني لنظرية ما بعد الحداثة فهو أنها حتمية ومعادية للإنسانية. وقد أكد غلنر على اتجاهين متعارضين في فكر ما بعد الحداثة، أحدهما يؤكد على الفردية والاختلاف، والآخر يزعم أن الفردية (الذاتية) يشكلها "الخطاب" أو الايديولوجيات التي لا يفهمها بصفة عامة الذين يؤمنون بها ويمارسونها.

ومن جهته يذهب النقد الماركسي الرئيسي لنظرية ما بعد الحداثة إلى أنها تقتصر إلى ركيزة قوية في النظرية الاجتماعية -الاقتصادية (في مقابل النظرية الثقافية). ومن ثم يصف جيمسون، ولاش المجتمع الأوروبي (الكوني) بأنه يعيش مرحلة "الرأسمالية

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 183

المتأخرة" و"الرأسمالية المشوشة"، بمعنى أنهما يصنفان هذا المجتمع حسب رؤيتهما  
لماهيته الاقتصادية.<sup>(1)</sup>

ويستخدم جيمسون ولاش مصطلح "ما بعد الحداثة" لوصف ثقافة الرأسمالية  
المتأخرة. وبالتالي فإن نظرية ما بعد الحداثة -في رأيهما- جانب من جوانب مجتمع  
الرأسمالية المتأخرة.

واستناداً إلى ما سبق يمكن القول إن هناك مكاناً داخل علم الاجتماع لنظرية ما بعد  
الحداثة ومفاهيمها. وأنها سوف توجه علم الاجتماع إلى حد ما نحو قضايا أكثر نوعية  
وانسانية. إلا أنه من السابق لأوانه أن نحكم على ما إذا كنا قد ولجنا أم لم نلج بعد  
عصر ما بعد الحداثة بخصائصها المميزة عن خصائص الحقبة الحديثة والوسطى  
والقديمة.

والخلاصة أنه على الرغم من أن ما بعد الحداثة ظهر كحركة معمارية، فإن ليوتار  
يُعد أبرز فلاسفة ما بعد الحداثة ويعد كتابه "حالة ما بعد الحداثة: دراسة في المعرفة"  
الصادر عام 1984 أساس فكر ما بعد الحداثة عن القضايا الأساسية للحداثة وما بعد  
الحداثة.

ويرفض ليوتار كما ذكرنا المنظورات الشاملة عن التاريخ والمجتمع-التي يسميها  
أنساق التفسير الكبرى كالماركسية-التي تحاول دراسة العلم في سياق علاقات تبادلية  
نموذجية. وتعد ما بعد الحداثة عند ليوتار رفضاً صريحاً للاتجاهات الشمولية وللنزعة  
الراديكالية السياسية للماركسية. ويرتاب ليوتار -شأنه في ذلك شأن معظم أنصار ما  
بعد الحداثة- في وجود دوافع تعظيم الذات لدى الماركسيين وهو يؤكد على أنه لا يمكن

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 185.

أن نقص قصصاً ضخمة عن العالم، بل يمكن أن نقص قصصاً صغيرة عن الأوضاع الذاتية اللامتجانسة للأفراد والجماعات الاجتماعية.<sup>(1)</sup>

فالنظرية الاجتماعية لما بعد الحداثة تدرس العالم الاجتماعي من منظورات متعددة تشمل الطبقة والسلالة والنوع الاجتماعي وغيرها من محددات الانتساب إلى الجماعة. كما أن ما بعد الحداثة اتجاه مضاد للنزعة الاختزالية، كما أنه اتجاه تعددي في أولويته السببية وفي سياساته التي تبدو ليبرالية أكثر منها راديكالية. ولا تثق ما بعد الحداثة في الراديكالية والراديكاليين.

### سادساً - ما بعد الحداثة ومستقبل علم الاجتماع

يتعين على علم الاجتماع أن يغير من طبيعته جذرياً حتى يتسنى له تبني الاتجاهات النظرية الجديدة، فأطروحة علم اجتماع ما بعد الحداثة تبدو - عند مستوى معين - بمثابة الجمع بين النقيضين. إذ أن ما بعد الحداثة تقاوم اندماجها في علم على درجة عالية من التباين والتدرج والتخصص يُعرّف نفسه بدرجة كبيرة بالرجوع إلى علوم الاجتماع الأصلية لكونت ودوركايم وفيبر الذين أسسوا الدراسة الوضعية للظواهر الاجتماعية، وفصلوا مهنة العلم عن السياسة.

وتعترض ما بعد الحداثة على استقلالية علم الاجتماع بما في ذلك اختلافه عن العلوم الانسانية الأخرى بالإضافة إلى اعتماده المكثف على منهج يحاول به حل مشكلاته الفكرية. كما ترفض هذه النظرية اصفاء الطابع الرياضي على العالم، حتى ولو أقرت بصحة الرياضيات باعتبارها أحد أشكال الخطاب. وهذا لا يعني تقويض مناهج

<sup>1</sup> - نفس المرجع، ص. 707.

البحث الكمية. فالمناهج الكيفية برغم كل شيء يمكن أن تكون وضعية شأنها في ذلك شأن المناهج الكمية.

## الخاتمة:

إن التطور النظري الجديد في علم الاجتماع يبين أن مشروع كل اتجاه نظري لم ينته لأنه ينتقل في فكره وتحليله بين أحداث عصره وحسب ما يبرز من أمر جديد، لأن الأنساق الاجتماعية ليست فقط معقدة إنما تزداد تعقيداً إلى حد الاعتقاد أنه لا يمكن التعامل معها إلا بتطوير نظريات جديدة تعمل على إزالة التعقيد أو اختزاله. لذلك نجد دائماً سعياً في علم الاجتماع نحو التفكير في المستقبل وتوقع ما يمكن أن يحدث، مما يفرض توسيع إمكانيات البحث لتحقيق نوع من المعرفة يلقي الضوء على مجتمع جديد توجد بذوره في الوقت الحالي ولكنها غائبة عن الأنظار.

ولكن يبقى دائماً هناك مسألة من يسيطر على المجتمع أيمن يمتلك القوة ويعمل على استمرار سيطرته ويصارع ضد أولئك الذين يسعون إليها، مما يخلق عملية تاريخية متواصلة في هذا المنوال، فيحدث أن في اهتمامات علم الاجتماع بهذه الأمور يكون فيها خلاف في تناول أو في تفسير تلك الظواهر. وعليه يمكن القول إن المسألة السوسيولوجية تتمحور في الطريقة التي يتعامل فيها عالم الاجتماع مع الظواهر الاجتماعية باعتباره ذاتاً في المجتمع.

فعالم الاجتماع عند دراسته للواقع أو حتى للمعرفة ألا ينكر أن الإنسان ينتمي إلى البيئة المحيطة به، وأنه يصارع من أجل البقاء كي يستقر ويتوازن مع وضعه المتجدد دائماً. هذا بالإضافة إل قضية علاقة الفرد بالمجتمع، أي الفعل والبناء حيث أنهما غير

منفصلين ويتداخل فيهما الذاتي والموضوعي خصوصا وأن المرء يعيش حالياً في سياق التدفق المعلوماتي الذي يخلق تجدد للذات والمجتمع، مما يتطلب مزيداً من الفهم السوسيولوجي الحقيقي والكافي للواقع والمجتمع. لذلك لم يكتف علم الاجتماع بما كتبه الرواد وحتى المعاصرين ولكن سبر أغوار قضايا كثيرة كان يُعتقد أنها غير ذات أهمية عند بعض المفكرين، مثل العواطف مما مزج بين علم الاجتماع وعلم النفس حيث ارتبط الفعل الاجتماعي بالأحاسيس والعواطف.

وهكذا أمور دفعت علم الاجتماع إلى منح الطابع السوسيولوجي للمعرفة العلمية، بل ولكل أشكال الفكر، لأنه بهذه الطريقة سوف يبرز الدور الاجتماعي للعلوم، ونقصد هنا كل العلوم بمختلف مناحيها. فكل أفراد المجتمع ينشطون في إطار بناء اجتماعي، كل حسب موقعه وتخصصه ومكانته الاجتماعية في ممارسة لأفعال تعد حركة لأشخاص حقيقيين، وأنهم فاعلون يتنافسون عبر الزمن ويتواصلون عبر وحدة نظامية، وهنا نجد النظرية السوسيولوجية متواجدة عبر كل اتجاهاتها مجتهدة لتفسير هذه الأمور.



## قائمة المراجع:

- ابراهيم عيسى عثمان، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، دار الشرق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2008.
- السيد حنفي عوض، الحركات النسائية العمالية وتحديات سوق العمل: دراسات في علم الاجتماع النسوي، مطبعة نور الإيمان، القاهرة 2001.
- السيد عبد العاطي السيد، علم اجتماع المعرفة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1998.
- أنتوني غيدنز، بعيداً عن اليسار واليمين مستقبل السياسات الراديكالية، ترجمة، شوقي جلال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 286، أكتوبر 2002.
- أنتوني غيدنز، علم الاجتماع، ترجمة، فايز الصياغ، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، مؤسسة ترجمان، ط.4، 2005.
- إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة، محمد حسين غلوم، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، أبريل 1999.
- بيتر برغر وتوماس لوكمان، البنية الاجتماعية للواقع - دراسة في علم اجتماع المعرفة، ترجمة، أبوبكر أحمد باقادر، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، 2000.



- رشيد بوطيب، مفهوم التواصل في الفلسفة: من الحقيقة إلى الاختلاف (هابرماس

ولوهمان) من موقع [www.aljabriabed.net/n88-08\\_boutayeb](http://www.aljabriabed.net/n88-08_boutayeb)

[htm.15/12/2016](http://www.aljabriabed.net/n88-08_boutayeb.htm)

- شاكِر حسين خناشلي، نظريات معاصرة في علم الاجتماع، الأكاديمية العربية المفتوحة في الدانمارك.

- شحاتة صيام، النظرية الاجتماعية من المرحلة الكلاسيكية إلى ما بعد الحداثة، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2009.

- طه نجم، علم اجتماع المعرفة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996.

- عبد الله محمد عبد الرحمن، النظرية في علم الاجتماع - النظرية السوسولوجية المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة الإسكندرية، 2003.

- عبد الوهاب محمد خالد، العلوم السياسية والعلاقات الدولية، الجنادرية للنشر والتوزيع، ط.1، 2015.

- فانتن أحمد، عرض تحليلي للاتجاهات الحديثة في دراسة المرأة، في علياء شكري وآخرون، علم اجتماع المرأة، مكتب زهراء الشرق، القاهرة، 2001.

- فيليب كابان وجان فرانسوا دورتييه، علم الاجتماع، ترجمة إياس حسن، دار الفرقد، دمشق، سوريا، ط.1، 2010.



- محمد عبد الكريم الحوراني، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع (التوازن التفاضلي صيغة توليفية بين الوظيفة والصراع)، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع عمان الأردن 2007.

29 - مصطفى خلف عبد الجواد، قراءات معاصرة في نظرية علم الاجتماع، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية - كلية الآداب، جامعة القاهرة 2002.

55 - ميشال دوبوا، مدخل إلى علم الاجتماع العلوم والمعارف العلمية، ترجمة، سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008.

- ورت والس وألسون وولف، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع (تمدد أفاق النظرية الكلاسيكية)، ترجمة محمد عبد الكريم الحوراني، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان الأردن، 2010.

32-Pierre Bourdieu، chose dites، ed. Minuit، Paris 1987، p.147.